

من كتاب
مفتاح دار السعادة

فضل

العلم على المال

للإمام

ابن قيم الجوزية

تم التحقيق

معرفة الدار

دار الصحبة لله ربنا ربنا

من كتاب
مفتاح دار السعادة

فضل

العالم على الملوك

للإمام
ابن قيم الجوزية

تم التحقيق

بمعرفة الدار

دار الصحوة الإسلامية

كِتَابٌ قَدْحَمَى ذُرًّا بَعِينًا نَحْنُ مَانْحُوْطَةٌ
لِهَذَا قَلْتُ تَنْبِيْهًا
حَقُوْقُ الطَّبْعِ مَحْفُوْطَةٌ

لدار الصِّحَابِ لِلنِّشْرَانِ بِطَنْطَا

لِلنِّشْرِ - وَالتَّحْقِيْقِ - وَالتَّوْزِيْعِ

الْمُرَاسَلَاتُ:

طَنْطَاشُ الْمُدِيْرِيَّةِ - أَمَامَ مَحْطَةِ بِنْزِيْنِ التَّعَاوُنِ

ت: ٣٣١٥٨٧ ص.ب: ٤٧٧

الطَّبْعَةُ الْأُوْلَى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الحاجة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾^(٥) .

وقال جل شأنه : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾^(٥٥) .

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٢ .

(٥٥) سورة النساء: الآية ١ .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٥٥٥).

نسبة الكتاب للإمام ابن قيم الجوزية:

أخى المسلم لا يخفى عليك عالمنا الجليل الإمام
الحجة ابن قيم الجوزية فهو غنى عن التعريف.

أما عن الكتاب فهو جزء من كتابه القيم «مفتاح دار
السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة».

وقد رأينا أنه يحتاج إلى تحقيق وأن يخرج بصورة طيبة
غير تلك الطبعات السابقة التي لا تتناسب مع قدر إمامنا
الجليل.

كذلك عملنا على أن نخرج هذا الكتاب الطيب
المبارك في صورة أجزاء مستقلة ليكون سهل التناول
ويكون الكتاب كاملاً من مجموع هذه الأجزاء بإذن الله
تعالى على أن يستقل كل جزء بموضوع مستقل.

(٥٥٥) سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١.

(بين يدي الكتاب)

هذا الكتاب الذي نقدمه لك اليوم -أخي المسلم- هو عبارة عن وصية جامعة شاملة لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه- لكميل بن زياد النخعي، وهذه الوصية تقسم الناس بحسب تقبلهم للعلم، وهو تقسيم - كما قال أبو بكر الخطيب - « في غاية الصحة ونهاية السداد لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل، إما أن يكون عالماً أو متعلماً أو مغفلاً للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له .

ويبدأ ابن القيم بعد ذلك في شرح الوصية مبيناً فضل العلم على المال، فيبدأ بتوضيح أنواع القلوب ومدى تقبلها للعلم ودور العقل في تثبيت العلم في القلب، وهذا بدوره جعل المصنف - رحمه الله - يبين مراتب الإدراك عند الناس فجعل الناس ثلاثة أنواع من حيث تقبلهم للعلم، النوع الأول العالم الرباني، والنوع الثاني المتعلم على سبيل النجاة، والنوع الثالث الهمج الرعاع، ويركز المصنف على النوع الثالث فيتعرض لهم موضعاً

أوصافهم ، فهم أتباع كل ناعق ، ويميلون مع كل ريح ،
وفي أثناء ذلك يعقد مقارنة بين المؤمن والكافر من حيث
الابتلاء .

ثم يقرر بعد ذلك أن للعلم نوراً يهتدى به صاحبه ،
وينتقل المصنف إلى نقطة أخرى من الوصية وهي الخاصة
بأفضلية العلم على المال وهنا يقف وقفة طويلة لتوضيح
أوجه التفاضل بينهما نذكر منها :

- ١ - العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة .
- ٢ - إن العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الملوك .
- ٣ - إن العلم يجرس صاحبه وصاحب المال يجرس ماله .
- ٤ - إن صاحب المال إذا مات فارقه ماله والعلم يدخل
معه القبر .
- ٥ - إن العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم .
- ٦ - إن المال يحصل للكافر والمؤمن ، والبر والفاجر أما
العلم النافع فلا يحصل إلا للمؤمن .

وهكذا حتى يورد أربعين وجهاً لتفضيل العلم على
المال ، فإذا ما انتهى من تقرير هذه الأفضلية شرع في
توضيح وبيان فوائد العلم نذكر منها :

- ١ - محبة العلم وأهله تورث السعادة .

- ٢ - العلم يكسب الطاعة .
٣ - العلماء إذا ماتوا لم يميت ذكرهم وعلمهم فهم أحياء
بين الناس .

ثم يوضح بعد ذلك أصناف حملة العلم ومن يصلح
منهم لهذه المهمة ومن لا يصلح لها، ويذكر بعض الآفات
التي تلحق بأهل العلم ويسدى لهم نصيحة مجرب للنجاة
من الشكوك، ثم يبين أن تحصيل العلم واتباع الشهوات
لا يجتمعان في قلبا رجل واحد، وذلك لأن من كان جمع
المال همته والسعى وراء الدنيا وحطامها صار ذلك لذته
وشهوته، وشتان بين من حاله هذا وبين طلاب العلم
الذين لا تخلو الأرض من طائفة منهم قائمة بالحق لا
يضرهم من خالفهم، وهذا ينقله إلى بيان أفضلية أمة
محمد - ﷺ - على غيرها من الأمم، وفي أثناء ذلك
يتعرض للشبهة ويرد عليهم قولهم بالإمام المنتظر، ويبين
الفرق بين الحجة والبينة .

وأخيراً يقف المصنف - رحمه الله - وقفة توضح
صفات أهل العلم وأحوالهم ومراتبهم .

وأتركك - أخى المسلم - مع ابن القيم فى هذه
المحاورة الرائعة . وأسأل الله أن ينفع بها وأن يجعلها فى
ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله
بقلب سليم .

الناشر

أبو حذيفة

إبراهيم بن محمد

عملى فى الكتاب

قمت بإصلاح بعض الأخطاء المطبعية التى ظهرت فى هذا الجزء .

قمت بعزو الآيات القرآنية الواردة فيه إلى أماكنها بالكتاب الكريم .

قمت بتخريج الأحاديث النبوية مع ذكر أقوال أهل هذا الشأن من رجال الجرح والتعديل وذكر درجة الحديث كلما أمكن إلى ذلك سبيلاً .

علقت على بعض الكلمات الغريبة أو الغامضة فى معناها .

قمت بوضع عناوين توضيحية تسهل على القارئ مهمته ووضعها بين معكوفتين .

إعداد مقدمة للكتاب تشمل :

- ١ - نسبة الكتاب إلى صاحبه .
- ٢ - نبذة عن مضمون الكتاب .
- ٣ - الدافع للقيام بهذا العمل .

[بداية الكتاب]

[وصية غالية لعلّى بن أبى طالب]

الوجه التاسع والعشرون بعد المائة: (١) ما رواه كميل بن زياد النخعى قال أخذ على بن أبى طالب -رضى الله عنه- بيدي فأخرجني ناحية الجبانة فلما أصحر جعل يتنفس ثم قال يا كميل بن زياد القلوب أوعية فخيرها أوعاها احفظ عنى ما أقول لك «الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، العلم خمر من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرك المال ، العلم يزكو على الإنفاق وفى رواية على العمل والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ،

(١) الوجه التاسع والعشرون بعد المائة: من موضوع الكتاب الأصلي الذى يتعرض فيه إمامنا ابن قيم الجوزية لموضوع «العلم وفضله وشرفه» .

ومحبة اعلم دين يدان بها العلم يكسب العالم الطاعة في
 حياته وجميل الأحدثوة بعد وفاته وصنيعة المال تزول
 بزواله، مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما
 بقى الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب
 موجودة، هاه هاه إن ههنا علماً - وأشار بيده إلى
 صدره - لو أصبت له حملة بل أصبته لقناً غير مأمون
 عليه يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر بحجج الله على
 كتابه، وينعمه على عباده، أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له
 في إحيائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا إذا
 ولا ذاك أو منهوماً للذات، سلس القيادة للشهوات، أو
 مغرى بجمع الأموال والادخار وليس من دعاة الدين،
 أقرب شياً بهما الأنعام السائمة لذلك يموت العلم بموت
 حامله، اللهم بلى لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته
 لكيلا تبطل حجج الله وبياناته أولئك الأقلون عدداً
 الأعظمون عند الله نيلاً، بهم يدفع الله عن حججه حتى
 يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم
 بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلانا ما استوعر منه
 المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا
 بأبدان أرواحها معلقة بالملا الأعلى، أولئك خلفاء الله

في أرضه ودعائه إلى دينه، هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم
وأستغفر الله لي ولك إذا شئت فقم» (٢) ذكره أبو نعيم في
الحلية وغيره.

[شرح الخطيب لحديث علي]

قال أبو بكر الخطيب: هذا حديث حسن من
أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظاً وتقسيم أمير
المؤمنون للناس في أوله تقسيم في غاية الصحة ونهاية
السداد لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التي ذكرها
مع كمال العقل وإزاحة العلل إما أن يكون عالماً أو متعلماً
أو مغفلاً للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له.

[العلم الرباني]

فالعالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل
ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد وقد دخل في الوصف له بأنه

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٧٩ - ٨٠).

رباني وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله ويمنع وصفه بما خالفها. ومعنى الرباني في اللغة الرفيع الدرجة في العلم العالی المنزلة فيه. وعلى ذلك حملوا قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ (٣) وقوله ﴿رَبَّانِيْنَ﴾ (٤) قال ابن عباس «حكماء فقهاء». وقال أبو رزین فقهاء علماء. وقال أبو عمر الزاهد سألت ثعلباً عن هذا الحرف وهو الرباني فقال سألت ابن الأعرابي فقال إذا كان الرجل عالماً عاملاً معلماً قيل له هذا رباني فإن حرم عن خصلة منها لم نقل له رباني.

قال ابن الأنباري عن النحويين إن الربانيين منسوبون إلى الرب وإن الألف والنون زيدتا للمبالغة في النسب كما تقول لحياتي وجبهاتي إذا كان عظيم اللحية والجمبة.

وأما المتعلم على سبيل النجاة: فهو الطالب بتعلمه والقاصد به نجاته من التفريط في تضييع الفروض الواجبة عليه والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها والأنفة من

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٣.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٧٩.

مجانسة البهائم. ثم قال وقد نفى بعض المقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم. وأما القسم الثالث: فهم المهملون لأنفسهم الراضون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة التي هي في الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل التي لا منزلة بعدها في الجهة ولا دونها في السقوط وما أحسن ما شبههم بالهملج الرعاع وبه يشبه دناة الناس وأراذلهم والرعاع المتبدد المتفرق والناعق الصائح وهو في هذا الموضع الراعى يقال نعق الراعى بالغنم ينطق إذا صاح بها. ومنه قوله تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾ (٥).

[شرح المؤلف لحديث على - رضى الله عنه -]

ونحن نشير إلى بعض ما فى هذا الحديث من الفوائد. فقوله - رضى الله عنه - القلوب أوعية: يشبه القلب بالوعاء والإناء والوادى لأنه وعاء للخير والشر. وفى بعض الآثار « أن لله فى أرضه آنية وهى القلوب فخبرها

(٥) سورة البقرة: الآية ١٧١.

أرقها وأصلبها وأصفاها» فهي أواني مملوءة من الخمر وأواني مملوءة من الشر كما قال بعض السلف «قلوب الأبرار تغلى بالبر وقلوب الفجار تغلى بالفجور». وفي مثل هذا قيل في المثل. وكل إناء بالذى فيه ينضح وقال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ (٦) شبه العلم بالماء النازل من السماء والقلوب في سعتها وضيقها بالأودية فقلب كبير واسع يسع علمه كثيراً كواد كبير واسع يسع ماء كثيراً وقلب صغير ضيق يسع علماً قليلاً كواد صغير ضيق يسع ماءً قليلاً. ولهذا قال النبي - ﷺ - «لا تسموا العنب الكرم فإن الكرم قلب المؤمن» (٧) فإنهم كانوا يسمون شجر العنب الكرم لكثرة منافعه وخمره والكرم كثيرة الخمر والمنافع فأخبره أن قلب المؤمن أولى بهذه التسمية لكثرة ما فيه من الخمر والبر والمنافع وقوله فخمرها أوعاها يراد به أسرعها وعبر

(٦) سورة الرعد: الآية ١٧.

(٧) أخرجه البخارى (٦١٨٢ - ٦١٨٣ / فتح) ومسا (٤/ ١٧٦٣) عبدالباقى من طرق عن أنى هريرة - رضى الله عنه مرفوعاً.

وأكثرها وعياً وأثبتها وعياً ويراد به أيضاً أحسنها وعياً
 فيكون حسن الوعي الذى هو إيعاء لما يقال له فى قلبه
 هو سرعته وكثرته وثباته والوعاء من مادة الوعي فإنه آلة
 ما يوعى فيه كالغطاء والفراش والبساط ونحوها ويوصف
 بذلك القلب والأذن كقوله تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء
 حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن
 واعية﴾ (٨) قال قتادة أذن سمعت وعقلت عن الله ما
 سمعت. وقال الفراء لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن
 يأتى بعد فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب
 يقال قلب واع وأذن واعية لما بين الأذن والقلب من
 الارتباط فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب فهى بابه
 والرسول الموصل إليه العلم كما أن اللسان رسوله المؤدى
 عنه ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن
 أحقها أن توصف بالوعي وأنها إذا وعت وعى القلب
 وفى حديث جابر فى المثل الذى ضربته الملائكة للنبي
 - صلى الله عليه وسلم - ولأتمته وقول الملك له اسمع سمعت أذنك وعقل
 قلبك فلما كان القلب وعاء والأذن مدخل ذلك الوعاء
 وبابه كان حصول العلم موقوفاً على حسن الاستماع

(٨) سورة الحاقة: الآية ١١، ١٢.

وعقل القلب والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه . ومنه عقل البعير والدابة والعقال لما يعقل به وعقل الإنسان يسمى عقلاً لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك ولهذا يسمى حجراً لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ما حواه فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا يدعه يذهب كما تعقل الدابة التي يخاف شرودها .

[مراتب الإدراك] :

وللإدراك مراتب بعضها أقوى من بعض فأولها الشعور ثم الفهم ثم المعرفة ثم العلم ثم العقل ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التي ركبها الله في الإنسان فخبر القلوب ما كان واعياً للخير ضابطاً له وليس كالقلب القاسى الذى لا يقبله . فهذا قلب حجرى لا كالمائع الأخرق الذى يقبل ولكن لا يحفظ ولا يضبط فتفهم الأول كالرسم فى الحجر وتفهم الثانى كالرسم على الماء بل يحمر القلوب ما كان ليلاً صلماً يقبل بليته ما ينطبع فيه ويحفظ صورته بصلابته فهذا تفهيمه كالرسم فى الشمع وشبهه .

الناس ثلاثة من حيث تقبلهم للعلم

وقوله الناس ثلاثة فعالم رباني ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع: هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع فإن العبد إما أن يكون قد حصل كماله من العلم والعمل أولاً فالأول العالم الرباني والثاني إما أن تكون نفسه متحركة في طلب ذلك الكمال ساعية في إدراكه أولاً والثاني هو المتعلم على سبيل النجاة والثالث هو الهمج الرعاع فالأول هو الواصل والثاني هو الطالب والثالث هو المحروم.

[أولاً : العالم الرباني] :

والعلم الرباني: قال ابن عباس -رضي الله عنهما- هو «المعلم أخذه من التربية أى يرى الناس بالعلم ويربهم به كما يرى الطفل أبوه». وقال سعيد بن جبير هو «الفقيه العليم الحكيم» قال سيبويه زادوا ألفاً ونوناً في الرباني إذا أرادوا تخصيصاً بعلم الرب تبارك وتعالى كما قالوا شعراني ولحياتي ومعنى قول سيبويه رحمه الله أن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذى بعث به رسوله وتخصص به نسب إليه دون سائر من علم علماء.

قال الواحدى فالربانى على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب أى بعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى . وقال المبرد الربانى الذى يُربى العلم ويربى الناس به أى يعلمهم ويصلحهم . وعلى قوله فالربانى من رب يرى ربا أى يريه فهو منسوب إلى التربية يربى علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه كما يربى صاحب المال ماله ويربى الناس به كما يربى الأطفال أوليائهم . وليس هذا من قوله (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير) فالربيون هنا الجماعات بإجماع المفسرين قيل إنه من الربة بكسر الراء وهى الجماعة . قال الجوهري الربى واحد للربين وهم الألوفا من الناس . قال تعالى : ﴿وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم﴾ (٩) ولا يوصف العالم بكونه ربانياً حتى يكون عاملاً بعلمه معلماً له فهذا قسم .

[ثانياً : المتعلم على سبيل النجاة] :

والقسم الثانى متعلم على سبيل النجاة أى قاصداً بعلمه النجاة وهو المخلص فى تعلمه المتعلم ما ينفعه العامل

(٩) سورة آل عمران : الآية ١٤٦ .

ما علمه فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة إلا بهذه الأمور الثلاثة فإنه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاة وإن تعلم ما ينتفع به لا للنجاة فكذلك وإن تعلمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ولهذا وصفه بكونه على السبيل أى على الطريق التى تنجيه وليس حرف على وما عمل فيه متعلقاً بمتعلم إلا على وجه التضمنين أى مفتش متطلع على سبيل نجاته فهذا فى الدرجة الثانية وليس ممن تعلمه ليجارى به السفهاء أو يجارى به العلماء أو يصرف وجوه الناس إليه فإن هذا من أهل النار كما جاء فى الحديث وثبته أبو نعيم أيضاً. قوله - صلى الله عليه وسلم - : «من تعلم علماً مما يتفنى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد رائحة الجنة» (١٠) قال وثبت أيضاً قوله - صلى الله عليه وسلم - : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» (١١) فهؤلاء ليس فهم من هو

(١٠) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢) من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - مرفوعاً. وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٦١٥٩).

(١١) أخرجه الطبرانى فى «الصغير» من طريق عثمان بن مقسم البرى عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة مرفوعاً. قال الشيخ الألبانى فى الضعيفة (١٦٣٤): ضعيف الإسناد جداً.

على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة . نعوذ بالله من
الخذلان .

[ثالثاً : الهمج الرعاع]

القسم الثالث المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم بل
همج رعاع والهمج مع الناس حمقاؤهم وجهلهم وأصله
من الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط
على وجوه الغنم والدواب وأعينها فشبه همج الناس به
والهمج أيضاً مصدر قال الراجز :

قد هلكت جارتنا من الهمج
وإن تجمع تأكل عتوداً أو ثلج

والهمج : هنا مصدر ومعناه سوء التدبير في أمر
المعيشة . وقولهم همج هامج مثل ليل لایل والرعاع من
الناس الحمقى الذين لا يعتد بهم .

[أوصاف القسم الثالث (أ) أتباع كل ناعق]

وقوله اتباع كل ناعق : أى من صاح بهم ودعاهم
تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال فإنهم لا علم

لهم بالذى يدعون إليه أحق هو أم باطل فهم مستجيبون
للدعوتة وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان فإنهم
الأكثر عدداً الأقلون عند الله قدراً وهم حطب كل
فتنة ، بهم توقد ويشب ضرامها ، فإنها يهتر لها أولو الدين
ويتولاها الهمج الرعاع وسمى داعمهم ناعقاً تشبيهاً لهم
بالأنعام التى ينعق بها الراعى فتذهب معه أين ذهب . قال
تعالى : ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا
يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا
يعقلون﴾ (١٢) وهذا الذى وصفهم به أمير المؤمنين هو
من عدم علمهم وظلمة قلوبهم فليس لهم نور ولا بصيرة
يفرقون بها بين الحق والباطل بل الكل عندهم سواء .

[(ب) - يميلون مع كل ريح]

وقوله - رضى الله عنه - يميلون مع كل ريح : وفى
رواية مع كل صائم شبه عقولهم الضعيفة بالغصن
الضعيف وشبه الأهوية والآراء بالرياح والغصن يميل مع

(١٢) سورة البقرة: الآية ١٧١ .

الريح حيث مالت وعقول هؤلاء تميل مع كل هوى وكل
داع ولو كانت عقولاً كاملة كانت كالشجرة الكبيرة
التي لا تتلاعب بها الرياح.

[مقارنة بين المؤمن والكافر من حيث الابتلاء]

وهذا بخلاف المثل الذي ضربه النبي - ﷺ -
للمؤمنين « بالخمارة من الزرع تفيئه الريح مرة وتقيمه
أخرى والمنافق كشجرة الأرز التي لا تقطع حتى
تستحصد »^(١٣) فإن هذا المثل ضرب للمؤمن وما يلقاه
من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها فلا
يزال بين عافية وبلاء ومحنة وصحة وسقم وأمن وخوف
وغير ذلك فيقع مرة ويقوم أخرى ويميل تارة ويعتدل
أخرى فيكفر عنه بالبلاء ويمحص به ويخلص من كدره
والكافر كله خبث ولا يصلح إلا للوقود فليس في إصابته
في الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما في إصابة
المؤمن فهذه حال المؤمن في الابتلاء. وأما مع الأهواء

(١٣) أخرجه البخارى (٥٦٤٣) ومسلم (٤/٢١٦٤) عبد الباقي

من حديث كعب بن مالك - رضى الله عنه - مرفوعاً.

• دعاة الفتن والضلال والبدع فكما قيل :

برول الجبال الراسيات وقلبه

على العهد لا يلوى ولا يتغير

| للعلم نور يهتدى به صاحبه : [

وقوله - رضى الله عنه - لم يستضيئوا بنور العلم ولم
يلجأوا إلى ركن وثيق : بين السبب الذى جعلهم بتلك
المثابة وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين
الحق والباطل . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا
الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم
نوراً تمشون به ﴾ (١٤) وقال تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً
فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى
الظلمات ليس بخارج منها ﴾ (١٥) . وقوله تعالى :
﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم
من الظلمات إلى النور ﴾ (١٦) الآية . وقوله ﴿ ولكن
جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ (١٧) فإذا

(١٤) سورة الحديد : الآية ٢٨ .

(١٥) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

(١٦) سورة المائدة : الآية ٥٢ .

(١٧) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذى لا يدرى أين يذهب فهو لحيته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمنع به من دعاة الباطل فإن الحق متى استقر فى القلب قوى به وامتنع مما يضره ويهلكه . ولهذا سمي الله الحجة العلمية سلطاناً فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوى قلبه وهذان الأصلان هما قطب السعادة أعنى العلم والقوة وقد وصف بهما سبحانه المعلم الأول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ﴾ (١٨) . وقال تعالى فى سورة التكمير ﴿ إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾ (١٩) فوصفه بالعلم والقوة وفيه معنى أحسن من هذا وهو الأشبه بمراد على - رضى الله عنه - وهو أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاءوا بنور العلم ولا لجأوا إلى عالم مستبصر فقلدوه ولا متبعين لمستبصر فإن الرجل إما أن يكون بصيراً أو أعمى متمسكاً ببصر يقوده أو أعمى يسر بلا قائد .

(١٨) سورة النجم : الآية ٥٤ .

(١٩) سورة التكمير : الآية ١٩ ، ٢٠ .

العلم خير من المال] :

وقوله - رضى الله عنه - العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال . يعنى أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة وموانع العطب فإن الإنسان لا يلقى نفسه فى هلكة إذا كان عقله معه ولا يعرضها لتلف إلا إذا كان جاهلاً بذلك لا علم له به فهو كمن يأكل طعاماً مسموماً فالعالم بالسّم وضرره يحرسه علمه . يمتنع به من أكله والجاهل به يقتله جهله فهذا مثل حراسة العلم للعالم وكذا الطبيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير ما يجلب له الأمراض والأسقام وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذ حذره منها فيحرسه علمه من الهلاك وهكذا العالم بالله وبأمره وبعدوه ومكائده . مداخله على العبد يحرسه علمه من وساوس الشيطان وخطراته وإلقاء الشك والريب والكفر فى قلبه فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك فعلمه يحرسه من الشيطان مكلما جاء ليأخذه صاح به حرس العلم والإيمان فيرجع حاسئاً خائباً . وأعظم ما يحرسه من هذا العدو المبين العلم والإيمان فهذا السبب الذى من العبد والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته فمتى وكله إلى نفسه طرفه

عين تخطفه عدوه. قال بعض العارفين أجمع العارفون
« على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك وأجمعوا على
أن الخذلان أن يخلى بينك وبين نفسك ».

[العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة]

وقوله العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه
النفقة: العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت
ينابيعه فازداد كثرة وقوة وظهوراً فيكتسب بتعليمه
حفظ ما علمه ويحصل له به علم مالم يكن عنده وربما
تكون المسألة في نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز
الأشكال فإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضاءت
وانفتح له منها علوم آخر. وأيضاً فإن الجزاء من جنس
العمل فكما علم الخلق من جهالتهم جزاه الله بأن علمه
من جهالته كما في صحيح مسلم من حديث عياض بن
حمار عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في حديث طويل:
« وأن الله قال لي أنفق أنفق عليك » (٢٠) وهذا يتناول
نفقة العلم إما بلفظه وإما بتنبهه وإشارته وفحواه ولزكاء

(٢٠) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار مطولاً

وفيه (وأنفق مستحق عليك).

العلم ونحوه طريقان أحدهما تعليمه والثاني العمل به فإن العمل به أيضاً ينميه ويكثره ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه .

وقوله والمال تنقصه النفقة : لا ينافي قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « ما نقصت صدقة من مال » فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت ذهب ذلك القدر وخلفه غيره .
وأما العلم فكالقبس من النار لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شيء بل يزيد العلم بالاعتباس منه فهو كالعين التي كلما أخذ منها قوى ينبوعها وجاش معينا .

[وجوه تفضيل العلم على المال]

وفضل العلم على المال يعلم من وجوه . أحدها : أن العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الملوك والأغنياء .

والثاني : أن العلم يحرس صاحبه وصاحب المال يحرس ماله .

والثالث : أن المال تذهبه النفقات والعلم يزكو على النفقة .

الرابع : أن صاحب المال إذ مات فارقه ماله والعلم يدخل معه قبره .

الخامس : أن العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم .

السادس : أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن .

السابع : أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة .

الثامن : أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها والمال لا يزيكها ولا يكسبها ولا يزيد لها صفة كمال بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها .

التاسع : أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية فالمال يدعوها إلى صفات الملوك والعلم يدعوها إلى صفات العبيد .

العاشر : أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها والمال حجاب بينها وبينها .

الحادى عشر : أن غنى العلم أجل من غنى المال فإن
غنى المال غنى بأمر خارجى عن حقيقة الإنسان لو
ذهب فى ليلة أصبح فقيراً معدماً وغنى العلم لا يخشى
عليه الفقر بل هو فى زيادة أبداً فهو الغنى العالى حقيقة
كما قيل :

غنيت بلا مال من الناس كلهم
وأن الغنى العالى عن الشئ لا به

الثانى عشر : أن المال يستعبد مُحبه وصاحبه فيجعله
عبداً له كما قال النبى - ﷺ - : «تعس عبد الدينار
والدرهم» (٢١) الحديث والعلم يستعبد لربه وخالقه
فهو لا يدعوه إلا إلى عبودية الله وحده .

الثالث عشر : أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة
وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة .

الرابع عشر : أن قيمة الغنى ماله وقيمة العالم علمه
فهذا متقوم بماله فإذا عدم ماله عدمت قيمته فبقى بلا

(٢١) أخرجه البخارى (٢٨٨٧/فتح) وابن ماجه (٤١٣٦) من
حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - مرفوعاً بلفظ (تعس عبد الدينار
وعبد الدرهم) .

قيمة والعالم لا تزول قيمته بل هي في تضاعف وزيادة دائماً .

الخامس عشر: أن جوهر المال من جنس جوهر البدن وجوهر العلم من جنس جوهر الروح كما قال يونس بن حبيب: «علمك من روحك ومالك من بدنك والفرق بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن» .

السادس عشر: أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضاً عن علمه والغنى العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكاله به يود لو أن علمه بغناه أجمع .

السابع عشر: أنه ما أطاع الله أحد قط إلا بالعلم وعمامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال .

الثامن عشر: أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله .

التاسع عشر: أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيراً فإنه معشوق النفوس فإذا رأت من يستأثر بمعشوقها علمها سعت في هلاكه كما هو الواقع وأما غنى العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموا

العشرون: أن اللذة الحاصلة من غنى المال إما لذة وهمية وإما لذة بهيمية فإن صاحبه إن التذ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذة وهمية خيالية وإن التذ بإنفاقه في شهواته فهي لذة بهيمية.

وأما لذة العلم فلذة عقلية روحانية وهي تشبه لذة الملائكة وبهجتها وفرق ما بين اللذتين.

الحادى والعشرون: أن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشره في جمع المال والحرص عليه وتنقصه والإضرار به ومطبقون على تعظيم الشره في جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبته ورؤيته بعين الكمال.

الثانى والعشرون: أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال المعرض عن جمعه الذى لا يلتفت إليه ولا يجعل قلبه عبداً له ومطبقون على ذم الزاهد في العلم الذى لا يلتفت إليه ولا يحرص عليه.

الثالث والعشرون: أن المال يمدح صاحبه بتخليه منه وإعجازه والعلم إنما يمدح بتخليه به واتصاله به.

الرابع والعشرون: أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن فهو حزين قبل حصوله خائف بعد حصوله

وكلما كان أكثر كان الخوف أقوى وغنى العلم مقرون بالأمن والفرح والسرور.

الخامس والعشرون: أن الغنى بماله لا بد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقه والغنى بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم فلذة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم.

السادس والعشرون: أن استلذاذ النفس وكألها بالغنى استكمال بعارية مؤداة فتجملها بالمال تجمل بثوب مستعار لا بد أن يرجع إلى مالكة يوماً وأما تجملها بالعلم وكألها به فتجمل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها.

السابع والعشرون: أن الغنى بالمال هو عين فقر النفس والغنى بالعلم هو غناها الحقيقي فغناها بعلمها هو الغنى وغناها بمالها هو الفقر.

الثامن والعشرون: أن من قدم وأكرم لماله إذا زال ماله زال تقديمه وإكرامه ومن قدم وأكرم لعلمه لا يزداد إلا تقديماً وإكراماً.

التاسع والعشرون : أن تقديم الرجل لماله هو عين
ذمه فإنه نداء عليه بنقصه وأنه لولا ماله لكان مستحقاً
للتأخر والإهانة وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فإنه عين كآلة
إذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به لا بأمر خارج
عن ذاته .

الوجه الثلاثون : أن طالب الكمال بغنى المال
كالجامع بين الضدين فهو طالب مالا سبيل له إليه .

(وبيان ذلك) أن القدرة صفة كمال وصفة الكمال
محبوبة بالذات والاستغناء عن الغير أيضاً صفة كمال
محبوبة بالذات فإذا مال الرجل بطبعه إلى السخاوة
والجود وفعل المكرمات فهذا كمال مطلوب للعقلاء
محبوب للنفوس وإذا التفت إلى أن ذلك يقتضى خروج
المال من يده وذلك يوجب نقصه واحتياجه إلى الغير
وزوال قدرته نفرت نفسه عن السخاء والكرم والجود
واصطناع المعروف وظن أن كماله في إمساك المال وهذه
البلية أمر ثابت لعامة الخلق لا ينفكون عنها فلأجل ميل
الطبع إلى حصول المدح والثناء والتعظيم يجب الجود
والسخاء والمكارم ولأجل فوت القدرة الحاصلة بسبب
إخراجه والحاجة المنافية لكمال الغنى يجب إبقاء ماله

ويكره السخاء والكرم والجود فيبقى قلبه واقفاً بين
هذين الداعيين يتجاذبانه ويعتوران عليه فيبقى الغلب في
مقام المعارضة بينها فمن الناس من يترجح عنده جانب
البذل والجود والكرم فيؤثره على الجانب الآخر .

ومنهم من يترجح عنده جانب الإمساك وبقاء القدرة
والغنى فيؤثره فهذان نظران للعقلاء .

ومنهم من يبلغ به الجهل والحماقة إلى حيث يريد
الجمع بين الوجهين فيعد الناس بالجود والسخاء والمكارم
طمعاً منه في فوزه بالمدح والثناء على ذلك وعند حضور
الوقت لا يفى بما قال فيستحق الدم ويبدل بلسانه
ويمسك بقلبه ويده فيقع في أنواع القبائح والفضائح .

وإذا تأملت أحوال أهل الدنيا من الأغنياء رأيتهم تحت
أسر هذه البلية وهم غالباً يبكون ويشكون .

وأما غنى العلم فلا يعرض له شيء من ذلك بل كلما
بذله ازداد ببذله فرحاً وسروراً وابتهاجاً وإن فاتته لذة
أهل الغنى وتمتعهم بأموالهم فهم أيضاً قد فاتتهم لذة أهل
العلم وتمتعهم بعلومهم وابتهاجهم بها فمع صاحب العلم
من أسباب اللذة ما هو أعظم وأقوى وأدوم من لذة

الغنى وتعبه في تحصيله وجمعه وضبطه أقل من تعب
حامع المال فجمعه وأمه دون أمه كما قال تعالى للمؤمنين
سلية لهم بما ينالهم من الألم والتعب في طاعته ومرضاته
﴿ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم
يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله
عليماً حكيماً﴾ (٢٢).

الحادى والثلاثون : أن اللذة الحاصلة من المال والغنى
إنما هي حال تجده فقط . وأما حال دوامه فإما أن
تذهب تلك اللذة وإما أن تنقص ويدل عليه أن الطبع
يبقى طالباً لغنى آخر حريصاً عليه فهو يحاول تحصيل
الزيادة دائماً فهو في فقر مستمر غير منقضى ولو ملك
خزائن الأرض ففقره وطلبه وحرصه باق عليه فإنه أحد
المنهومين اللذين لا يشبعان فهو لا يفارقه ألم الحرص
والطلب .

وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان فإن لذته في حال
بقائه مثلها في حال تجده بل أزيد وصاحبها وإن كان
لا يزال طالباً للمزيد حريصاً عليه فطلبه وحرصه

(٢٢) سورة النساء: الآية ١٠٤ .

مستصحب للذة الحاصل ولذة المرجو المطلوب ولذة
الطلب وابتهاجه وفرحه به .

[جامع المال إن أنفقه تحسر وإن أمسكه عُدَى]

الثاني والثلاثون : إن غنى المال يستدعى الأنعام على
الناس والإحسان إليهم فصاحبه إما أن يسد على نفسه في
هذا الباب وإما أن يفتحه عليه فإن سده على نفسه اشتهر
عند الناس بالبعد من الخير والنفع فابغضوه وذموه
واحتقروه وكل من كان بغيضاً عند الناس حقيراً لديهم
كان وصول الآفات والمضرات إليه أسرع من النار في
الحطب اليابس ومن السيل في منحدره وإذا عرف من
الخلق أنهم بمقتونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزناً تألم قلبه
غاية التألم وأحضر الهموم والغموم والأحزان وإن فتح
باب الإحسان والعطاء فإنه لا يمكنه إيصال الخير
والإحسان إلى كل أحد فلا بد من إيصاله إلى البعض
وإمساكه عن البعض وهذا يفتح عليه باب العداوة
والمدمة من المهروم والمرحوم أما المهروم فيقول كيف جاد
على غمري وبخل على وأما المرحوم فإنه يلتذ ويفرح بما
حصل له من الخير والنفع فيبقى طامعاً مستشرفاً لنظيره

على الدوام وهذا قد يتعذر غالباً فيفضي ذلك إلى العداوة
الشديدة والمذمة. ولهذا قيل: « اتق شر من أحسنت
إليه » وهذه الآفات لا تعرض في غنى العلم فإن صاحبه
يمكنه بذله للعالم كلهم واشتراكهم فيه والقدر المبذول
منه باق لآخذه لا يزول بل يتجر به فهو كالغنى إذا
أعطى الفقير رأس مال يتجر به حتى يصير غنياً مثله .

[حسرة جمع المال في جمعه - وحراسته وإنفاقه]

الوجه الثالث والثلاثون: أن جمع المال مقرون
بثلاثة أنواع من الآفات والمحن نوع قبله ونوع عند
حصوله ونوع بعد مفارقتة .

[آفات جمع المال]

فأما النوع الأول: فهو المشاق والأنكاد والآلام
التي لا يحصل إلا بها .

وأما النوع الثاني: فمشقة حفظه وحراسته وتعلق
القلب به فلا يصبح إلا مهموماً ولا يمسي إلا مغموماً
فهو بمنزلة عاشق مفرط المحبة قد ظفر بمعشوقه والعيون
من كل جانب ترمقه والألسن والقلوب ترشقه فأى

عيش ولذة لمن هذه حاله وقد علم أن أعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم في التفريق بينه وبين معشوقه وإن لم يظفروا هم به دونه ولكن مقصودهم أن يزيلوا اختصاصه به دونهم فإن فازوا به وإلا استووا في الحرمان فزال الاختصاص المؤلم للنفوس ولو قدروا على مثل ذلك مع العالم لفعلوه ولكنهم لما علموا أنه لا سبيل إلى سلب علمه عمدوا إلى جحده وإنكاره ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه فإن بهر علمه وامتنع عن مكابرة الجحود والإنكار رموه بالعظائم ونسبوه إلى كل قبيح ليزيلوا من القلوب محبته ويسكنوا موضعها النفرة عنه وبغضه وهذا شغل السحرة بعينه فهؤلاء سحرة بألسنتهم فإن عجزوا له عن شيء من القبايح الظاهرة رموه بالتلبيس والتدليس والدوكرة^(٢٣) والرياء وحب الترفع وطلب الجاه وهذا القدر من معاداة أهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد لا بد منه فلا ينبغي لمن له مسكة عقل أن يتأذى به إذ لا سبيل له إلى دفعه بحال فليوطن نفسه عليه كما يوطنها على برد الشتاء وحر الصيف .

(٢٣) الدوكرة: بمعنى حب الذكر وهي لغة لريعة اللسان (٤)

والنوع الثالث : من آفات الغنى ما يحصل للعبد بعد مفارقتة من تعلق قلبه به وكونه قد حيل بينه وبينه والمطالبة بحقوقه والمحاسبة على مقبوضه ومصروفه من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه .

وغنى العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفييل بكل لذة وفرحة وسرور ولكن لا ينال إلا على جسر من التعب والصبر والمشقة .

[جامع المال يُنفر منه أو يتباغض أو يُعادى]

الرابع والثلاثون : أن لذة الغنى بالمال مقرونة بخلطة الناس ولو لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسراريه وأتباعه إذ لو انفرد الغنى بماله وحده من غير أن يتعلق بخادم أو زوجة أو أحد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاه به وإذا كان كمال لذته بغناه موقوفاً على اتصاله بالغير فذلك منشأ الآفات والآلام ولو لم يكن إلا اختلاف الناس وطبائعهم وإرادتهم فقييح هذا حسن ذاك ومصالحة ذاك مفسدة هذا ومنفعة هذا مضرة ذاك وبالعكس فهو مبتلى بهم فلا بد من وقوع النفرة والتباغض والتعادى بينهم وبينه فإن إرضاءهم كلهم محال

وهو جمع بين الضدين وإرضاء بعضهم وإسقاط غيره
سبب الشر والمعادة وكلما طالت المخالطة ازدادت
أسباب الشر والعداوة وقويت وبهذا السبب كان الشر
الحاصل من الأقارب والعشراء أضعاف الشر الحاصل من
الأجانب والبعداء وهذه المخالطة إنما حصلت من جانب
الغنى بالمال أما إذا لم يكن فيه فضيلة لهم فإنهم يتجنبون
مخالطته ومعاشرته فيستريح من أذى الخلطة والعشرة
وهذه الآفات معدودة في الغنى بالعلم.

[المال لا يراد لذاته فهو وسيلة ومع ذلك فهو في هم
وغم وحزن]

الخامس والثلاثون : أن المال لا يراد لذاته وعينه فإنه
لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلاً فإنه لا يشبع ولا
يروى ولا يدفىء ولا يتمتع وإنما يراد لهذه الأشياء فإنه لما
كان طريقاً إليها أريد إرادة الوسائل . ومعلوم أن الغايات
أشرف من الوسائل فهذه الغايات إذا أشرف منه وهي
مع شرفها بالنسبة إليه ناقصة دنيئة وقد ذهب كثير من
العقلاء إلى أنها لا حقيقة لها وإنما هي دفع الألم فقط فإن
لبس الثياب مثلاً إنما فائدته دفع التآلم بالحر والبرد والريح

وليس فيها لذة زائدة على ذلك وكذلك الأكل إنما فائدته دفع ألم الجوع ولهذا لو لم يجد ألم الجوع لم يستطع الأكل وكذلك الشرب مع العطش والراحة مع التعب . ومعلوم أن في مزاولة ذلك وتحصيله ألماً وضراً ولكن ضرره وألمه أقل من ضرر ما يدفع به وألمه فيحتمل الإنسان أخف الضررين دفعا لأعظمهما .

وحكى عن بعض العقلاء أنه قيل له وقد تناول قدحاً كريهاً من الدواء كيف حالك معه قال أصبحت في دار بليات أدافع آفات بآفات .

[منغصات لذات الدنيا]

وفي الحقيقة : فلذات الدنيا من المآكل والمشرب واللبس والمسكن والمنكح من هذا الجنس واللذة التي يباشرها الحس ويتحرك لها الجسد وهي الغاية المطلوبة له من لذة المنكح والمآكل شهوتى البطن والفرج ليس لهما ثالث البتة إلا ما كان وسيلة إليهما وطريقاً إلى تحصيلهما وهذه اللذة منغصة من وجوه عديدة .

منها : أن تصور زوالها وانقضائها وفنائها يوجب تنغصها .

ومنها : أنها ممزوجة بالآفات ومعجونة بالآلام محتاطة
بالمخاوف وفي الغالب لا تفي آلامها بطبيها كما قيل
قايسـت بين جمـالها وفعالها
فإذا المـلاحـة بالقـباحـة لا تفي

ومنها : أن الأراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها
كبراءهم وعقلاءهم بل يزيدون عليهم فيها أعظم زيادة
وأفحشها فنسبتهم فيها إلى الأفاضل كنسبة الحيوانات
البيمية إليهم فمشاركة الأراذل وأهل الخسة والدناءة فيها
وزيادتهم على العقلاء فيها مما يوجب النفرة والاعراض
عنها وكثير من الناس حصل له الزهد في المحبوب
والمعشوق منها بهذه الطريق وهذا كثير في أشعار الناس
ونثرهم كما قيل

سأترك حبا من غمر بغض
ولكن لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام
رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء
إذا كان الكلاب يلغن فيه

وقيل لزاهد: ما الذى زهدك فى الدنيا فقال خسة
شركائها وقلة وفائها وكثرة جفائها. وقيل لآخر فى
ذلك: فقال ما مددت يدي إلى شىء منها إلا وجدت
غمرى قد سبقنى إليه فأتركه له.

ومنها: أن الالتذاذ بموقعها إنما هو بقدر الحاجة إليها
والتألم بمطالبة النفس لتناولها وكلما كانت شهوة الظفر
بالشىء أقوى كانت اللذة الحاصلة بوجوده أكمل فلما لم
تحصل تلك الشهوة لم تحصل تلك اللذة فمقدار اللذة
الحاصلة فى الحال مساو لمقدار الحاجة والألم والمضرة فى
الماضى وحينئذ يتقابل اللذة الحاصلة والألم المتقدم
فيتساقطان فتصير اللذة كأنها لم توجد ويصير بمنزلة من
شق بطن رثجل ثم خاطه وداواه بالمراهم أو بمنزلة من
ضربه عشرة أسواط وأعطاه عشرة دراهم.

ولا تخرج لذات الدنيا غالباً عن ذلك ومثل هذا لا
يعد لذة ولا سعادة ولا كلاً بل هو بمنزلة قضاء الحاجة
من البول والغائط فإن الإنسان يتضرر بفعله فإذا قضى
حاجته استراح منه فأما أن يعد ذلك سعادة وبهجة ولذة
مطلبة فلا.

ومنها : أن هاتين اللذتين اللتين هما أثر اللذات عند الناس ولا سبيل إلى نيلهما إلا بما يقترن بهما قبلهما وبعدهما من مباشرة القاذورات والتألم الحاصل عقبيهما مثال لذة الأكل فإن العاقل لو نظر إلى طعامه حال مخالطته ريقه وعجنه به لنفرت نفسه منه ولو سقطت تلك اللقمة من فيه لنفر طبعه من إعادتها إليه ثم أن لذة به إنما تحصل في مجرى نحو الأربع الأصابع فإذا فصل عر ذلك المجرى زال تلذذه به فإذا استقر في معدته وخالط الشراب وما في المعدة من الأجزاء الفضلية فإنه حينئذ يصير في غاية الخسة فإن زاد على مقدار الحاجة أوردت الأدوية المختلفة على تنوعها ولولا أن بقاءه موقوف على تناوله لكان تركه والحالة هذه أليق به كما قال بعضهم لولا قضاء جرى نزهت أتملتى
عن أن تلم بماكول ومشروب

[لذة الجماع]

وأما لذة الوقاع فقدرها أبين من أن تذكر آفات ويدل عليه أن أعضاء هذه اللذة هي عورة الإنسان التي يستحيا من رؤيتها وذكرها وسترها أمر فطر الله عليه عباده ولا تنم لذة الواقعة إلا بالاطلاع عليها وإبرازها

• التلطف بالرتوبات المستقذرة المتولدة منها ثم أن تمامها
إنما يحصل بانفصال النطفة وهى اللذة المقصودة من
الوقاع وزمنها يشبه الآن الذى لا ينقسم فصعوبة تلك
المزاولة والمحاولة والمطاولة والمراوضة والتعب لأجل لذة
لحظة كمد الطرف فأى مقايسة بين هذه اللذة وبين
التعب فى طريق تحصيلها . وهذا يدل على أن هذه اللذة
ليست من جنس الخيرات والسعادات والكمال الذى
خلق له العبد ولا كمال له بدونه بل ثم أمر وراء ذلك كله
قد هبىء له العبد وهو لا يفطن له لغفلته عنه وإعراضه
عن التفتيش عليه حتى يظفر بمعرفته عن التفتيش على
طريقه حتى يصل إليه يسوم نفسه مع الأنعام السائمة .

قد هياوك لأمر لو فطنت له

فاربأ بنفسك أن ترعى مع الحمل

وموقع هذه اللذات من النفس كموضع لذة البراز من
رجل احتبس فى موضع لا يمكنه القيام إلى الخلاء وصار
مضطراً إليه فإنه يجد مشقة شديدة وبلاء عظيماً فإذا
تمكن من الذهاب إلى الخلاء وقدر على دفع ذلك الخبيث
المؤذى وجد لذة عظيمة عند دفعه وإرساله ولا لذة هناك
إلا راحتته من حمل ما يؤذيه حمله .

▼ فعلم أن هذه اللذات إما أن تكون بدفع آلام وإما أن تكون لذات ضعيفة خسيصة مقترنة بأفات ترى مضرته عليه وهذا كما يعقب لذة الوقاع من ضعف القلب وخفقان الفؤاد وضعف القوى البدنية والقلبية وضعف الأرواح وإستيلاء العفونة على كل البدن وإسراء الضعف والخور إليه واستيلاء الأخلاط عليه لضعف القوة عن دفعها وقهرها .

ومما يدل على أن هذه اللذات ليست خيرات وسعادات وكالاً أن العقلاء من جميع الأمم مطبقون على ذم من كانت هي نهمة وشغله ومصرف همته وإرادته والأزراء به وتحقير شأنه وإلحاقه بالبهائم ولا يقيمون له وزناً ولو كانت خيرات وكالاً لكان من صرف إليها همته أكمل الناس .

ومما يدل على ذلك أن القلب الذى قد وجه قصد وإرادته إلى هذه اللذات لا يزال مستغرقاً فى الهموم والغموم والأحزان وما يناله من اللذات فى جنب هذه الآلام كقطرة فى بحر كما قيل : « سروره وزن حبة وحزنه قنطار » فإن القلب يجرى مجرى مرآة منصوبة على جدار وذلك الجدار ممر لأنواع المشتبهات والمليذوذات

المكروهات وكلما مر به شيء من ذلك ظهر فيه أثره .
إن كان محبوباً مشتتياً مال طبعه إليه فإن لم يقدر على
حصيله تألم وتعذب بفقده وإن قدر على تحصيله تألم في
لمريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له ويتألم
حال حصوله خوفاً من فراقه وبعد فراقه خوفاً على ذهابه
. إن كان مكروهاً ولم يقدر على دفعه تألم بوجوده وإن
قدر على دفعه اشتغل بدفعه ففاته مصلحة راجحة
الحصول فيتألم لفواتها فعلم أن هذا القلب أبداً مستغرق
في بحار الهموم والغموم والأحزان وأن نفسه تضحك
عليه وترضيه بوزن ذرة من لذة فيغيب بها عن شهوده
لقناطير من ألمه وعذابه فإذا حيل بينه وبين تلك اللذة ولم
يبق له إليها سبيل تجرد ذلك الألم وأحاط به واستولى عليه
من كل جهاته فقل ما شئت في حال عبد غيب عنه سعده
وحظوظه وأفراحه وأحضر شقوته وهمومه وغمومه
وأحزانه وبين العبد وبين هذه الحال أن ينكشف الغطاء
ويرفع الستر وينجلي الغبار ويحصل ما في الصدور فإذا
كانت هذه غاية اللذات الحيوانية التي هي غاية جمع
الأموال وطلبها فما الظن بقدر الوسيلة .

وأما غنى العلم والإيمان فدائم اللذة متصل الفرح -
مقتضى لأنواع المسرة والبهجة لا يزول فيحزن ولا يفارق
فيؤلم به أصحابه كما قال الله تعالى فهم ﴿لا خوف عليهم
ولا هم يحزنون﴾ (٢٤).

السادس والثلاثون: أن غنى المال يبغض الموت
ولقاء الله فإنه لحيه لماله يكره مفارقه ويحب بقاءه لئلا
به كما شهد به الواقع.

وأما العلم فإنه يجب للعبد لقاء ربه ويزهده في ه
الحياة النكدة الفانية.

السابع والثلاثون: أن الأغنياء يموت ذكرهم بموت
والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم كما قال أمير المؤمنين
هذا الحديث « مات خزان الأموال وهم أحياء والعلم
باقون ما بقى الدهر » فخزان الأموال أحياء كأموال
والعلماء بعد موتهم أموات كأحياء.

الثامن والثلاثون: أن نسبة العلم إلى الروح كنه
الروح إلى البدن فالروح ميتة حياتها العلم كما أن الجسد
ميت حياته بالروح فالغنى بالمال غايته أن يزيد في ح

(٢٤) سورة يونس: الآية ٦٢.

البدن وأما العلم حياة القلوب والأرواح كما تقدم تقديره .

التاسع والثلاثون : أن القلب ملك البدن والعلم زينته وعدته وماله وبه قوام ملكة والملك لا بد له من عدد وعدة ومال وزينة فالعلم هو مركبه وعدته وجماله .
وأما المال فغاياته أن يكون زينة وجمالاً للبدن إذا أنفقه في ذلك فإذا خزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالاً بل نقصاً ووبالاً . ومن المعلوم أن زينة الملك به وما به قوام ملكه أجل وأفضل من زينة رعيته وجمالهم فقوام القلب بالعلم كما أن قوام الجسم بالغذاء .

ال مال يجمع على قدر الكفاية] :

الوجه الأربعون : أن القدر المقصود من المال هو ما يكفى العبد ويقيمه ويدفع ضرورته حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره إلى ربه عز وجل فإذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده فكان ضرره عليه أكثر من مصلحته وكلما ازداد غناه به ازداد تثبطاً وتخلفاً عن التجهيز لما أمامه .

وأما العلم النافع فكلما ازداد منه ازداد في تعبئة الزاد وقضاء الجهاز وإعداد عدة المسير والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة إلا به فعدة هذا السفر هو العلم والعمل وعدة الإقامة جمع الأموال والادخار ومن أراد شيئاً هياً له عدته .

قال تعالى : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فنبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدین﴾ (٢٥) .

[محبة العلم وأهله تورث السعادة]

قوله محبة العلم أو العالم دين يدان بها لأن العلم ميراث الأنبياء والعلماء وراثتهم فمحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم وبغض العلم وأهله بغض لميراث الأنبياء وورثتهم فمحبة العلم من علامات السعادة وبغض العلم من علامات الشقاوة وهذا كله إنما هو في علم الرسل الذي جاؤا به وورثوه للأمة لا في كل ما يسمى علماً .

(٢٥) سورة التوبة : الآية ٤٦ .

وأيضاً فإن محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه وذلك هو الدين وبغضه ينهى عن تعلمه واتباعه وذلك هو نشقاء والضلال . وأيضاً فإن الله سبحانه عليم يجب كل عليم وإنما يضع علمه عند من يحبه فمن أحب العلم وأهله فقد أحب ما أحب الله وذلك مما يدان به .

[العلم يكسب الطاعة]

قوله العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل لأحدوثه بعد مماته يكسبه ذلك أى يجعله كسباً له . يورثه إياه ويقال كسبه ذلك عز أو طاعة وأكسبه لغتان . منه حديث خديجة - رضى الله عنها - « إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم » (٢٦) روى بفتح التاء وضمها ومعناه تكسب نال والغنى هذا هو الصواب وقالت طائفة من رواه ضمها فذلك من أكسبه ملاً وعزاً ومن رواه بفتحها ومعناه تكسب أنت المال المعدوم بمعرفتك وحذقك التجارة ومعاذ الله من هذا الفهم وخديجة أجل قدراً من

(٢٦) أخرجه البخارى (١/٢٢ - فتح) ومسلم (١/١٣٩) -

١١ / عبد الباقي) من حديث عائشة - رضى الله عنها - .

تكلّمها بهذا في هذا المقام العظيم أن تقول لرسول الله
- ﷺ - أبشر فوالله لا يخزيك الله إنك تكسب الدرهم
والدينار وتحسن التجارة ومثل هذه التحريفات إنما تذكر
لئلا يغتر بها في تفسير كلام الله ورسوله.

والمقصود أن قوله العلم يكسب العالم الطاعة في
حياته: أي تجمله مطاعاً لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل
أحد للملوك فمن دونهم فكل أحد محتاج إلى طاعة العالم
فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا
الرسول وأولى الأمر منكم﴾ (٢٧) وفسر أولى الأمر
بالعلماء قال ابن عباس هم الفقهاء والعلماء أهل الدين
الذين يعلمون الناس دينهم أوجب الله تعالى طاعتهم
وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك وإحدى الروايتين
عن الإمام أحمد وفسروا بالأمراء وهو قول ابن زيد
وإحدى الروايتين عن ابن عباس وأحمد.

والآية تتناولهما جميعاً فطاعة ولاة الأمر واجبة إذا
أمروا بطاعة الله ورسوله وطاعة العلماء كذلك فالعالم بما

جاء به الرسول العامل به أطوع في أهل الأرض من كل
أحد فإذا مات أحيا الله ذكره ونشر له في العالمين
أحسن الثناء فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس
والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس كما قيل .

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم
وليس لهم حتى النشور نشور

وقال الآخر :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم وهم في الناس أموات

وقال آخر :

وما دام ذكر العبد بالفضل باقياً
فذلك حي وهو في التراب هالك
ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقهاء
كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم
لم يفقدوا منهم إلا صورهم وإلا فذكرهم وحدثهم
والثناء عليهم غير منقطع وهذه هي الحياة حقاً حتى عد
ذلك حياة فانية . كما قال المتنبي

ذكر الفتى عيشه الثاني وحاجته
ما فاته وفضول العيش أشغال

[التملق يزول بزوال أسبابه]

قوله وصنيفة المال تزول بزواله يعني أن كل صنيفة
صنعت للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة
وقضاء حوائج وتقديم واحترام وتولية وغير ذلك فإنها
إنما هي مراعاة لماله فإذا زال ماله وفارقه زالت تلك
الصنائع كلها حتى أنه ربما لا يسلم عليه من كان يدأب
في خدمته ويسعى في مصالحه .

وقد أكثر الناس من هذا المعنى في أشعارهم وكلامهم
وفي مثل قولهم : « من ودك لأمر ملك عند انقضائه » قال
بعض العرب

وكان بنو عمى يقولون مرحباً
فلما رأوني معسراً مات مرحب
ومن هذا ما قيل إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا
يعجبك ذلك فإن زوال الكرامة بزوالهما ولكن ليعجبك
إن أكرموك لعلم أو دين وهذا أمر لا ينكر في الناس

حتى أنهم ليكرمون الرجل لثيابه فإذا نزعها لم ير منهم تلك الكرامة وهو هو .

قال مالك بلغنى أن أبا هريرة دعى إلى وليمة فأتى فحجب فرجع فلبس غمراً تلك الثياب فأدخل فلما وضع الطعام أدخل كفه في الطعام فعوتب في ذلك فقال إن هذه الثياب هي التي أدخلت فهي تأكل حكاها ابن مزين الطليطلى في كتابه وهذا بخلاف صنعة العلم فإنها لا تزول أبداً بل كل ما لها في زيادة مالم يسلب ذلك العالم علمه وصنعة العلم والدين أعظم من صنعة المال لأنها تكون بالقلب واللسان والجوارح فهي صادرة عن حب وإكرام لأجل ما أودعه الله تعالى إياه من علمه وفضله به على غيره .

وأيضاً فصنعة العلم تابعة لنفس العالم وذاته وصنعة المال تابعة لماله المنفصل عنه .

وأيضاً فصنعة المال صنعة معاوضة وصنعة العلم والدين صنعة حب وتقرب وديانة .

وأيضاً فصنعة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن والكافر وأما صنعة العلم والدين فلا تكون إلا مع أهل ذلك .

وقد يراد من هذا أيضاً معنى آخر وهو أن من
اصطنعت عنده صنيعة بمالك إذا زال ذلك المال وفارقه
عدمت صنيعتك عنده وأما من اصطنعت إليه صنيعة
علم وهدى فإن تلك الصنيعة لا تفارقه أبداً بل ترى في
كل وقت كأنك أسديتها إليه حينئذ .

[العلماء إذا ماتوا لم يمت ذكركم وعلمهم فهم أحياء
بين الناس]

قوله مات حُزَّانُ الأموال وهم أحياء قد تقدم بيانه .
وكذا قوله والعلماء باقون ما بقي الدهر . وقوله أعيانهم
مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة المراد بأمثالهم
صورهم العلمية ووجودهم المثالي أى وإن فقدت ذاتهم
فصورهم وأمثالهم في القلوب لا تفارقها وهذا هو
الوجود الذهني العلمي لأن محبة الناس لهم واقتداءهم بهم
وانتفاعهم بعلومهم يوجب أن لا يزالوا نصب عيونهم
وقبله قلوبهم فهم موجودون معهم وحاضرون عندهم
وإن غابت عنهم أعيانهم . كما قيل
ومن عجب أنى أحسن إليهم
وأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها
ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وقال آخر:

ومن عجب أن يشكو البعد عاشق
وهل غاب عن قلب المحب حبيب
خيالك في عيني وذكرك في فمي
ومثواك في قلبي فأين تغيب

هل يجوز للإنسان أن يخبر الناس بعلمه ؟

قوله آه إن ها هنا علماً وأشار إلى صدره يدل على
جواز إخبار الرجل بما عنده من العلم والخبر ليقتبس منه
وليتفع به . ومنه قول يوسف الصديق عليه السلام
﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ (٢٨)
فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله
ورسوله من الخير فهو محمود وهذا غير من أخبر بذلك
ليتكثر به عند الناس ويتعظم وهذا يجازيه الله بمقت الناس
له وصفره في عيونهم والأول يكثره في قلوبهم وعيونهم
وإنما الأعمال بالنيات .

(٢٨) سورة يوسف: الآية ٥٥ .

وكذلك إذ أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر أو ليستوفى بذلك حقاً له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله والأحسن في هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير وهو في الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعظيم.

[أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحملة]

ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحملة وهم أربعة :

أحدهم من ليس هو بمأمون عليه وهو الذى أوتى ذكاء وحفظاً ولكن مع ذلك لم يؤت ذكاء فهو يتخذ العلم الذى هو آلة الدين آلة الدنيا يستجلبها به ويتوسل العلم إليها ويجعل البضاعة التى هى متجر الآخرة متجر الدنيا وهذا غير أمين على ما حملة من العلم ولا يجعله الله إماماً فيه قط فإن الأمين هو الذى لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته فلا يدعو إلى إقامة رياسته ولا دنياه وهذا الذى قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجره متجراً للدنيا قد خان الله وخان عباده وخان دينه . فلهذا قال غير مأمون عليه .

[الاستظهار بكتاب الله على ما سواه]

وقوله يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده هذه صفة هذا الخائن إذا أنعم الله عليه استظهر بتلك النعمة على الناس وإذا تعلم علماً استظهر به على كتاب الله .

ومعنى استظهاره بالعلم على كتاب الله تحكيمة عليه وتقديمه وإقامته دونه وهذا حال كثير ممن يحصل له علم فإنه يستغنى به ويستظهر به ويحكمه ويجعل كتاب الله تبعاً له يقال استظهر فلان على كذا بكذا أى ظهر عليه به وتقدم وجعله وراء ظهره وليست هذه حال العلماء فإن العالم حقاً يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه فيقدمه ويحكمه ويجعله إمامه ويجعله عياراً على غيره مهيمناً عليه كما جعله الله تعالى كذلك فالمستظهر به موفق سعيد والمستظهر عليه مخذول شقي فمن استظهر على الشيء فقد جعله خلف ظهره مقدماً عليه ما استظهر به وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه واكتفى بغيره منه وقدم غيره وأخره .

والصنف الثاني من حملة العلم المنقاد الذي لم يثلج له صدره ولم يطمئن به قلبه بل هو ضعيف البصرة فيه لكنه منقاد لأهله وهذه حال أتباع الحق من مقلديهم وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين وإنما هم من مكثرى سواد الجيش لا من أمرائه وفرسانه والمنقاد منفعل من قاده يقوده وهو مطاوع الثلاثي وأصله منقيد كما كتسب ثم أعلت الياء ألفاً لحركتها بعد فتحة فصار منقاد تقول قدته فانقاد أى لم يمتنع والإحناء جمع حنو بوزن علم وهى الجوانب والنواحي والعرب تقول أزجر إحناء طمرك أى أمسك نواحي خفتك وطيشك ميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً قال لبيد

فقلت ازدجر إحناء طمرك واعلمن
بأنك إن قدّمت رجلك عاثر

[الراسخ فى العلم]

والطمير هنا الخفة والطيش .

وقوله ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة هذا لضعف علمه وقلة بصيرته إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب بخلاف الراسخ فى العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر مازالت يقينه

ولا قدحت فيه شكاً لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه
 الشبهات بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه
 مغلولة مغلوبة والشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه
 وبين انكشاف الحق له فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم
 تؤثر تلك الشبهة فيه بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة
 بطلانها ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه
 الشك بأول وهلة فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه
 أمثالها حتى يصير شاكاً مرتاباً والقلب يتوارده جيشان
 من الباطل جيش شهوات الغي وجيش شبهات الباطل
 فأما قلب صفا إليها وركن إليها تشربها وامتلاً بها فينضح
 لسانه وجوارحه بموجبها فإن أشرب شبهات الباطل
 تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات فيظن
 الجاهل أن ذلك لسعة علمه وإنما ذلك من عدم علمه
 ويقينه .

[وصية شيخ الإسلام للنجاة من الشكوك]

وقال لي شيخ الإسلام -رضي الله عنه- (٢٩) وقد
 جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد لا تجعل قلبك

(٢٩) هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح
إلا بها ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات
بظواهرها ولا تستقر فيها فإياها بصفائه ويدفعها
بصلابته وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك
صار مقراً للشبهات أو كما قال .

فما أعلم أنى انتفعت بوصية في دفع الشبهات
كانتفاعى بذلك .

وإنما سميت الشبهة بها لاشتباه الحق بالباطل فيها فإنها
تلبس ثوب الحق على جسم الباطل وأكثر الناس أصحاب
حسن ظاهر فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد
صحتها .

وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك بل
يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها فينكشف له
حقيقتها ومثال هذا الدرهم الزائف فإنه يغتر به الجاهل
بالنقد نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة والناقد البصير
يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك فيطلع على زيفه فاللفظ
الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على

الدرهم الزائف والمعنى كالتحاس الذى تحته وكم قد قتل
هذا الاعتذار من خلق لا يحصهم إلا الله .

وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره رأى أكثر
الناس يقبل المذهب والمقالة بلانظ ويردها بعينها بلفظ
آخر وقد رأيت أنا فى هذا فى كتب الناس ما شاء الله وكم
رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح . وفى مثل
هذا قال أئمة الناس منهم الإمام أحمد وغيره : لا نزيل عن
الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنت فهؤلاء
الجهمية^(٣٠) يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته
وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائرهما وصف به نفسه
تشبيهاً وتجسيماً ومن أثبت ذلك مشبهاً فلا ينفر من هذا
المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقول
الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر وكل أهل نخلة ومقاله

(٣٠) الجهمية : أتباع جهم بن صفوان الذى قال بالإجبار
والاضطرار إلى الأعمال وأنكر الاستطاعات كلها، وزعم أن الجنة
والنار تبيدان وتفتيان . وزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن
الكفر هو الجهل به فقط، وقال لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى
وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز (انظر الفرق بين الفرق /

يكسون نخلتهم ومقاتلهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ومقالة مخالفهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ . كما قيل في هذا المعنى .

تقول هذا جنى النحل تمدحه
وإن تشأ قلت ذا قىء الزنابير
مدحاً وذمماً وما جاوزت وصفهما

والحق قد يعتره سوء تعبير
فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل
فجرده من لباس العبارة وجرد قلبك من النفرة والميل ثم
أعط النظر حقه ناظراً بعين الإنصاف ولا تكن ممن ينظر
في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظراً تاماً بكل قلبه ثم
ينظر في مقالة خصومه ومن يسيء ظنه به كنظر الشرر
والملاحظة فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوياً
والناظر بعين المحبة عكسه وما سلم من هذا الأمر إلا من
أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق . وقد قيل
وعين الرضا عن كل عيب كليله
كما أن عين السخط تبدى المساويا

وقال آخر:

نظروا بعين عداوة لو أنها

عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

فإذا كان هذا في نظر العين الذي يدرك المحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها فما الظن بنظر القلب يدرك المعاني التي هي عرضة المكابرة والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ورد الباطل وعدم الاغترار به .

[العجلة والطيش آفة تلحق من لا يصلحون لحمل العلم]

وقوله بأول عارض من شبهة هذا دليل ضعف عقله ومعرفته إذ تؤثر فيه البداآت ويستفز بأوائل الأمور وبخلاف الثابت التام العاقل فإنه لا تستفزه البداآت ولا تزعجه وتقلقله فإن الباطل له دهشة وروعة في أوله فإذا ثبت له القلب رد عقبيه والله يحب من عنده العلم والأناة فلا يعجل بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه فالعجلة والطيش من الشيطان فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وحزم ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش

وعاقبة الندامة وعاقبة الأول جمد أمره ولكن للأول آفة
متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهى الفوت فإنه لا
يخاف من التثبيت إلا الفوت فإذا اقترن به العزم والحزم
تم أمره .

ولهذا فى الدعاء الذى رواه الإمام أحمد والنسائى عن
النبي - ﷺ - « اللهم ألى أسألك الثبات فى الأمر
والعزيمة على الرشد » (٣١) وهاتان الكلمتان هما جماع
الفلاح وما أتى للعبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما
فما أتى أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز
البدآت له أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة
بعد مواتها فإذا حصل الثبات أولاً والعزيمة ثانياً أفلح
كل الفلاح والله ولى التوفيق .

[العلم وراحة الجسم لا يجتمعان]

الصنف الثالث : رجل نهته فى نيل لذته فهو منقاد
لدايمى الشهوة أين كان ولا ينال درجة وراثه النبوة مع

(٣١) أخرجه الترمذى (٣٤٠٧) والنسائى (١٩٢/١) وأحمد.
(١٢٣/٤) من حديث شداد بن أوس - رضى الله عنه - مرفوعاً .
وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع برقم (١٢٨٨) .

ذلك ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطبيق الراحة قال
مسلم في صحيحة قال يحيى بن أبي كثير « لا ينال العلم
براحة الجسم » .

وقال إبراهيم الحرنبي : « أجمع عقلاء كل أمة النعيم لا
يدرك بالنعيم ومن آثر الراحة فاتمه الراحة » فما
لصاحب اللذات وما لدرجة وراثه الأنبياء
فدع عنك الكتابة لست منها

ولو سودت وجهك بالمداد

فإن العلم صناعة القلب وشغله فما لم تتفرغ لصناعته
وشغله لم تنلها وله درجة واحدة فإذا وجهت وجهته إلى
اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ومن لم يغلب لذة
إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم
ينل درجة العلم أبداً فإذا صارت شهوته في العلم ولذته
في كل إدراكه رجي له أن يكون من جملة أهله ولذة
العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ولذة
شهوات الأكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك
الإنسان فيها الحيوان ولذة الشر والظلم والفساد والعلو
في الأرض شيطانية يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده
وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم

والإيمان فإنما تكمل بعد المفارقة لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها فإذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم المقيم فهو في العلم والإيمان الذين بهما كمال سعادة الإنسان. وأيضاً فإن تلك اللذات سريعة الزوال وإذا انقضت أعقبت همماً وغماً ولا يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعاً لألمه وربما كان معاودته لها مؤلماً له كريهاً إليه لكن يحمله عليه مداواة ذلك الغم والهم فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبه والإقبال عليه والتعم بذكره فهذه هي اللذة الحقيقية.

[من كان جمع المال همته صار ذلك لذته]

الصف الرابع: من حرصه وهمته في جمع الأموال وتشميرها وادخارها فقد صارت لذته في ذلك وفنى بها عما سواه فلا يرى شيئاً أطيب له مما هو فيه فمن أين هذا ودرجة العلم فهؤلاء الأصناف الأربعة ليسوا من دعة الدين ولا من أئمة العلم ولا من طلبته الصادقين في طلبه ومن تعلق منهم بشيء منه فهو من المتسلقين عليه المتشبهين بحملته وأهله المدعين لوصاله المبتوتين من حباله

وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون فإن الناس يتشبهون به لما يظنون عندهم من العلم ويقولون لسنا خيراً منهم ولا نرغب بأنفسنا عنهم فهم حجة لكل مفتون .

ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام « احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » .

[همتهم في سعى الدنيا وحطامها]

وقوله أقرب شياً بهم الأنعام السائمة وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٣٢) فما اقتصر سبحانه على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلاً منهم والسائمة الراحية .

وشبه أمير المؤمنين هؤلاء بها لأن همتهم في سعى الدنيا وحطامها والله تعالى يشبه أهل الجهل والغى تارة بالأنعام وتارة بالحمر وهذا تشبيه لمن تعلم علماً ولم يعقله ولم يعمل به فهو كالحمار الذي يحمل أسفراً وتارة بالكلب وهذا لمن انسلخ عن العلم وأخلد إلى الشهوات والهوى .

(٣٢) سورة الفرقان : الآية ٤٤ .

[يموت العلم بموت حامليه]

وقوله كذلك يموت العلم بموت حامليه هذا من قول
النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديث عبدالله بن عمر وعائشة
- رضى الله عنهم - وغيرهما « إن الله لا يقبض العلم
انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال ولكن يقبضه بقبض
العلماء فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوساً جهالاً
ففسلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » (٣٣) رواه
البخارى في صحيحه فذهاب العلم إنما هو بذهاب
العلماء .

قال ابن مسعود يوم مات عمر - رضى الله عنه -
« إلى لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب » وقد
تقدم قول عمر - رضى الله عنه - موت ألف عابد أهون
من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه .

لا تخلو الأرض من طائفة قائمة بالحق لا يضرهم من
خالفهم

(٣٣) أخرجه البخارى (٣٦/١) ومسلم (٢٦٧٣) من حديث
عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً .

وقوله اللهم بلى لن تخلو الأرض من مجتهد قائم لله
 يحجج الله ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبي
 - ﷺ - « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق
 لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله
 وهم على ذلك » (٣٤).

ويدل عليه أيضاً ما رواه الترمذى عن قتيبة حدثنا
 حماد بن يحيى الأبيح عن ثابت عن أنس قال قال رسول
 الله - ﷺ - : « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير
 أم آخره » (٣٥) قال هذا حديث حسن غريب .

ويروى عن عبد الرحمن بن مهدى أنه كان يثبت حماد
 ابن يحيى الأبيح وكان يقول هو من شيوخنا وفي الباب
 عن عمار وعبد الله بن عمرو فلو لم يكن في أواخر الأمة
 قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية .

(٣٤) أخرجه مسلم (١٩٢٠) : من حديث ثوبان - رضى الله عنه -
 مرفوعاً .

(٣٥) أخرجه الترمذى (٢٨٦٩) من حديث أنس - رضى الله عنه -
 مرفوعاً . وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٥٨٥٤ .

[أمة محمد - ﷺ - خير الأمم]

وأيضاً فإن هذه الأمة أكمل الأمم وخير أمة
أخرجت للناس ونبيها خاتم النبيين لا نبي بعده فجعل الله
العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم لئلا تطمس معالم
الدين وتخفى أعلامه .

وكان بنو إسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي فكانت
تسوسهم الأنبياء والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء في بني
إسرائيل .

وأيضاً ففي الحديث الآخر « يحمل هذا العلم من كل
خلف عدله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين
وتأويل الجاهلين » (٣٦) وهذا يدل على أنه لا يزال محمولاً
في القرون قرناً بعد قرن .

وفي صحيح أبي حاتم من حديث الخولاني قال قال
رسول الله - ﷺ - : « لا يزال الله يغرّس في هذا
الدين غرساً يستعملهم في طاعته وعرّس الله هم أهل

(٣٦) أخرجه البيهقي (٢٠٩/١٠) عن إبراهيم بن عبد الرحمن
العدري مرسلأ - والمرسل من أقسام الضعيف - قال الشيخ الألباني في
تعليقه على المشكاة (٨٣/١) : لكن الحديث قد روى موصولاً من طريق
جماعة من الصحابة وصح بعض طرقه الحافظ العلائي في « بغية
الملتص » ١.هـ. قال الخطيب : سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث وقيل
له كأنه كلام موضوع . قال : لا .. هو صحيح سمعته من غير واحد .

العلم والعمل فلو خلت الأرض من عالم خلت من
غرس الله، (٣٧).

ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر. وزاد
الكذابون في حديث علي «إما ظاهراً مشهوراً وإما
خفياً مستوراً»، وظنوا أن ذلك دليل لهم على القول
بالمنتظر ولكن هذه الزيادة من وضع بعض كذائبيهم
والحديث مشهور عن علي لم يقل أحد عنه هذه المقالة إلا
كذاب وحجج الله لا تقوم بخفى مستور لا يقع العالم له
على خير ولا ينتفعون به في شيء أصلاً فلا جاهل يتعلم
منه ولا ضال يهتدى به ولا خائف يأمن به ولا دليل
يتعزز به فأى حجة لله قامت بمن لا يرى له شخص ولا
يسمع منه كلمة ولا يعلم مكان ولا سيما على أصول
القائلين به فإن الذى دعاهم إلى ذلك أنهم قالوا لا بد منه
في اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله فيالله
العجب أى لطف حصل بهذا المعدوم لا المعصوم وأى
حجة أثبتتم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل فإن هذا

(٣٧) أخرجه ابن ماجة (٨) وأحمد (٢٠٠/٤) من حديث أبى عتبة
الخولاني بلفظ (لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في
طاعته) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٧٦٩٢.

المعدوم إذا لم يكن لهم سبيل قط إلى لقائه والاهتداء به
فهل في تكليف مالا يطاق أبلغ من هذا وهل في العذر
والحجة أبلغ من هذا فالذى فررتم منه وقعتم في شر منه
وكنتم في ذلك كما قيل

المسجور بعمره عند كربته

كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أى الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة
الأخبار وبسادة هذه الأمة وأن يرى الناس عورته ويغريه
بكشفها ونعوذ بالله من الخذلان ولقد أحسن القائل
ما آن للسرداب أن يلد الذى

حملته بزعمكم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم

ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت
أعظم ضياع فأنتم أبطلتم حجج الله من حيث زعمتم
حفظها وهذا تصريح من أمير المؤمنين - رضى الله عنه -
بأن حامل حجج الله فى الأرض بحيث يؤديها عن الله
ويبلغها إلى عباده مثله - رضى الله عنه - ومثل إخواننا
من الخلفاء الراشدين ومن اتبعهم إلى يوم القيامة .

[المكلفون بإظهار حجج الله وبيناته]

وقوله لكيلا تبطل حجج الله وبيناته أى لكيلا تذهب من بين يدي الناس وتبطل من صدورهم إلا فالبطلان محال عليها لأنها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان .

[الحججة : معناها والفرق بينها وبين البينة]

فإن قيل فما الفرق بين الحجج والبيئات قيل الفرق بينهما أن الحجج هى الأدلة العلية التى يعقلها القلب وتسمع بالأذن قال تعالى فى مناظرة إبراهيم لقومه وتبين بطلان ما هم عليه بالدليل العلمى ﴿ وتلك حججتنا آياتناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ﴾ (٣٨) قال ابن زيد بعلم الحججة ، وقال تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾ (٣٩) وقال تعالى : ﴿ والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حججتهم داحضة عند ربهم ﴾ (٤٠) والحججة هى اسم لما

(٣٨) سورة الأنعام : الآية ٨٣ .

(٣٩) سورة آل عمران : الآية ٢٠ .

(٤٠) سورة الشورى : الآية ١٦ .

يحتج به من حق وباطل قال تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ (٤١) فإنهم يحتجون عليكم بحجة باطلة ﴿ فلا تخشوهم واخشوني ﴾ (٤٢) وقال تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجثهم إلا أن قالوا اتوا بآياتنا إن كنتم صادقين ﴾ (٤٣) والحجة المضافة إلى الله هي الحق وقد تكون الحجة بمعنى المخاصمة ومنه قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ﴾ (٤٤) أى قد وضع الحق واستبان وظهر فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة فإن الجدل شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق فإذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة والجدال على بصيرة مخاصمة المنكر ومجادلته عناء لا غنى فيه هذا معنى هذه الآية وقد يقع في وهم كثير من الجهال أن الشريعة لا

(٤١) سورة البقرة: الآية ١٥٠ .

(٤٢) سورة البقرة: الآية ١٥٠ .

(٤٣) سورة الجاثية: الآية ٢٥ .

(٤٤) سورة الشورى: الآية ١٥ .

احتجاج فيها وأن المرسل بها صلوات الله وسلامه عليه لم يكن محتج على خصومه ولا يجادلهم ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة والحجج للخواص وهم أهل البرهان يعنون نفوسهم ومن سلك طريقتهم وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن فإن القرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدث العالم فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلا وهو في القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده عن الإيرادات والأسئلة وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين.

قال أبو حامد: في أول الأحياء فإن قلت فلم لم تورد في أقسام العلم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو ممدوحان فاعلم أن حاصل ما يشمل عليه الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتي بيانه وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق طویل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات

تزدريها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيم لا
يتعلق بالدين ولم يكن شئ منه مألوفاً في العصر الأول
ولكن تغير الآن حكمه إذا حدثت البدع الصارفة عن
مقتضى القرآن والسنة لفقت لها شهباً وربت لها كلاماً
مؤلفاً فصار ذلك المحظور بحكم الضرورة مأذوناً فيه .

وقال الرازى: في كتابه أقسام اللذات لقد تأملت
الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروى غليلاً
ولا تشفى عليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ
في الإثبات «إليه يصعد الكلم الطيب» (٤٥) ﴿الرحمن
على العرش استوى﴾ (٤٦) وقرأ في النفس ﴿ليس كمثله
شئ﴾ (٤٧) ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى
وهذا الذى أشار إليه بحسب ما فتح له من دلالة القرآن
بطريق الخير وإلا فدلالته البرهانية العقلية التى يشير إليها
ويرشد إليها فتكون دليلاً سمعياً عقلياً أمر تميز به القرآن
وصار العالم به من الراسخين فى العلم وهو العلم الذى
يطمئن إليه القلب وتسكن عنده النفس ويزكو به العقل

(٤٥) سورة فاطر: الآية ١٠ .

(٤٦) سورة طه: الآية ٥ .

(٤٧) سورة الشورى: الآية ١١ .

وتستنير به البصيرة وتقوى به الحججة ولا سبيل لأحد من
العالمين إلى قطع من حاج به بل من خاصم به فلجت
حجته وكسر شبهة خصمه وبه فتحت القلوب
واستجيب لله ولرسوله ولكن أهل هذا العلم لا تكاد
الأعصار تسمح منهم إلا بالواحد بعد الواحد فدلالة
القرآن سمعية عقلية قطعية يقينية لا تعترضها الشبهات ولا
تداولها الاحتمالات ولا ينصرف القلب عنها بعد فهمها
أبدأ وقال بعض المتكلمين أفنيت عمري في الكلام أطلب
الدليل وأنا لا أزداد إلا بعداً عن الدليل فرجعت إلى
القرآن أتدبره وأتفكر فيه وإذا أنا بالدليل حقاً معي وأنا
لا أشعر به فقلت والله ما مثلي إلا كما قال القائل
ومن العجائب والعجائب جمّة

قرب الحبيب وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

قال فلما رجعت إلى القرآن إذا هو الحكم والدليل
ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبياناته ما لو
جمع كل حق قاله المتكلمون في كتبهم لكانت سورة من
سور القرآن وافية بمضمونه مع حسن البيان وفصاحة

للفظ وتطبيق المفصل وحسن الاحتراز والتنبيه على
سوانع الشبه والإرشاد إلى جوابها وإذا هو كما قيل بل
نوق ما قيل

كفى وشفى ما فى القواد فلم يدع

لذى أرب فى القول جداً ولا هزلاً
وجعلت جيوش الكلام بعد ذلك تفد إلى كما كانت
وتتزاحم فى صدرى ولا يأذن لها القلب بالدخول فيه ولا
نلقى منه إقبالاً ولا قبولاً فترجع على أديبارها.

والمقصود أن القرآن مملوء بالاحتجاج وفيه جميع
أنواع الأدلة والأقيسة الصحيحة وأمر الله تعالى رسوله
- صلى الله عليه وسلم - فيه بإقامة الحجة والمجادلة. فقال تعالى
﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (٤٨) وقال ﴿ولا تجادلوا
أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ (٤٩) وهذه
مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فى وهذه مناظرات
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه لخصومهم وإقامة الحجج
عليهم لا ينكر ذلك إلا جاهل مفرط فى الجهل.

(٤٨) سورة النحل: الآية ١٢٥ .

(٤٩) سورة العنكبوت: الآية ٤٦ .

والمقصود الفرق بين الحجج والبيئات . فنقول الحجج الأدلة العلمية والبيئات جمع بيئة وهي صفة في الأصل يقال آية بيئة وحجة بيئة والبيئة اسم لكل ما يبين الحق من علامة منصوبة أو أمانة أو دليل علمي .

قال تعالى : ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾ (٥٠) فالبيئات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة وقال تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس الذي بيكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ (٥١) ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار وهو من آيات الله الموجودة في العالم . ومنه قول موسى لفرعون وقومه ﴿قد جئتكم بيينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه﴾ (٥٢) وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البيئة .

(٥٠) سورة الحديد: الآية ٢٥ .

(٥١) سورة آل عمران: الآية ٩٦ .

(٥٢) سورة الأعراف: الآية ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

وقال قوم هود: ﴿يا هود ما جئنا بينة﴾ (٥٣) يريدون آية الاقتراح وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون أنه رسول الله إليهم فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح لا يكون لهم عذر في عدم الإجابة إليه وهذه هي الآيات التي قال الله تعالى فيها ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ (٥٤) فعدم إجابته سبحانه إليها إذ طلبها الكفار رحمة منه وإحسان فإنه جرت سنته التي لا تبديل لها أنهم إذا طلبوا الآية واقترحوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عوجلوا بعذاب الاستئصال فلما علم سبحانه أن هؤلاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية لم يجيبهم إلى ما طلبوا فلم يعمهم بعذاب لما أخرج من بينهم وأصلابهم من عباده المؤمنين وأن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التي اقترحوها فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته وإحسانه بخلاف الحجج فإنها لم تنزل متتابعة يتلو بعضها بعضاً وهي كل يوم في مزيد وتوفي رسول الله - ﷺ - وهي أكثر ما كانت وهي باقية إلى يوم القيامة .

(٥٣) سورة هود: الآية ٥٣ .

(٥٤) سورة الإسراء: الآية ٥٩ .

[هم أقل الناس عدداً وأعظمهم قدراً]

وقوله أولئك الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً
يعنى هذا الصنف من الناس أقل الخلق عدداً وهذا سبب
غربتهم فإنهم قليلون فى الناس والناس على خلاف
طريقتهم فلهم نبأ وللناس نبأ.

قال النبى - ﷺ - « بدأ الإسلام غربياً وسيعود
غربياً كما بدأ فطوبى للغرباء » (٥٥) فالؤمنون قليل فى
الناس والعلماء قليل فى المؤمنين وهؤلاء قليل فى العلماء
وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون فإنهم يقلون لو كان
هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عدداً والناس على
خلافهم .

فاعلم أن هؤلاء الناس ومن خالفهم فمشبهون بالناس
وليسوا بناس فما الناس إلا أهل الحق وإن كانوا أقلهم
عدداً قال ابن مسعود : « لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا
مع الناس ليوطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر
الناس » .

(٥٥) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبى هريرة - رضى الله
عنه - مرفوعاً . ولهذا الحديث شرح نفيس للحافظ ابن رجب الحنبلى .

وقد ذم سبحانه الأكثرين في غير موضع كقوله ﴿وإن تطع أكثر من الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ (٥٦) وقال: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ (٥٧).

وقال ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾ (٥٨) وقال ﴿وإن كثيراً من الخلقاء ليعنى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾ (٥٩).

وقال بعض العارفين انفرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب

مت بداء الهوى وإلا فخاطر

واطرق الحى والعيون نواظر

ولا تخف وحشة الطريق إذا سر

ت وكن في خفارة الحق سائر

وقوله بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم وهذا لأن الله

(٥٦) سورة الأنعام: الآية ١١٦.

(٥٧) سورة يوسف: الآية ١٠٣.

(٥٨) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٥٩) سورة ص: الآية ٢٤.

سبحانه ضمن حفظ حججه وبيناته وأخبر رسوله
 - ﷺ - « أنه لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا
 يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام
 الساعة » (٦٠) فلا يزال غرس الله الذين غرسهم في دينه
 يفرسون العلم في قلوب من أهلهم الله لذلك وارتضاهم
 فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم فلا تنقطع
 حجج الله والقائم بها من الأرض .

وفي الأثر المشهور: « لا يزال الله يغرس في هذا
 الدين غرساً يستعملهم بطاعة » .

وكان من دعاء بعض من تقدم « اللهم اجعلني من
 غرسك الذين تستعملهم بطاعتك » ولهذا ما أقام الله لهذا
 الدين من يحفظه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما علمه من
 العلم والحكمة إما في قلوب أمثاله وإما في كتب ينتفع بها
 الناس بعده وبهذا وبغيره فضل العلماء العباد فإن العالم إذا
 زرع علمه عند غيره ثم مات (٦١) جرى عليه أجره
 ويبقى له ذكره وهو عمر ثان وحياة أخرى وذلك أحق
 ما تنافس فيه المتنافسون ورغب فيه الراغبون .

(٦٠) سبق تخريجه برقم ٣٤ .

(٦١) انظر رسالتنا « ما ينفع المسلم بعد وفاته » .

[هجم بهم العلم فاستلانا حتى يصلوا إلى عين اليقين
وقوله هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانا ما
استوعره المترفون وأنسوا مما استوحش منه الجاهلون .
الهجوم على الرجل الدخول عليه بلا استئذان ولما
كانت طريق الآخرة وعرة وعلى أكثر الخلق لمخالفتها
لشهواتهم ومباينتها لإرادتهم ومألوفاتهم قلّ سالكوها
وزهدهم فيها قلة علمهم أو عدمه بحقيقة الأمر وعاقبة
العباد ومصيرهم وما هيئا له وهىء لهم فقل علمهم
بذلك واستلانا مركب الشهوة والهوى على مركب
الإخلاص والتقوى وتوعرت عليهم الطريق وبعدت
عليهم الشقة وصعب عليهم مرتقى عقابها وهبوط أوديتها
وسلوك شعابها فأخذوا إلى الدعة والراحة وآثروا
العاجل على الآجل وقالوا عيشنا اليوم نقد وموعدنا
نسيئة فنظروا إلى عاجل الدنيا وأغمضوا العيون عن
آجلها ووقفوا مع ظاهرها ولم يتأملوا باطنها وذاقوا
حلاوة مبادئها وغاب عنهم مرارة عواقبها ودر لهم ثديها
فطاب لهم الارتضاع واشتغلوا به عن التفكير فى الفطام
ومرارة الانقطاع وقال مغترهم بالله وجاحدهم لعظمته
وربوبيته متمثلاً فى ذلك :

* خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به * وأما القائمون لله بحجته خلفاء نبيه في أمته فإنهم لكمال علمهم وقوته نفذ بهم إلى حقيقة الأمر وهجم بهم عليه فعابنوا ببصائرهم ما غشيت عنه بصائر الجاهلين فاطمأنت قلوبهم به وعملوا على الوصول إليه لما باشرها من روح اليقين رفع لهم علم السعادة فشمروا إليه وأسمعهم منادى الإيمان النداء فاستبقوا إليه واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ورجبوا فيما لديه علموا أن الدنيا دار ممر لا دار مقر ومنزل عبور لا مقعد حبور وأنها خيال طيف أو سحابة صيف وأن من فيها كراكب قال تحت ظل شجرة ثم راح عنها وتركها وتيقنوا أنها أحلام نوم أو كظل زائل : * إن اللبيب بمثلها لا يخدع *

وأن واصفها صدق في وصفها إذ يقول :
أرى أشقياء الناس لا يسأمونها

على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وإن كانت تحب فإنها

سحابة صيف عن قليل تقشع
فرحلت عن قلوبهم مدبرة كما ترحلت عن أهلها مولية
وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة كما أسرعت إلى الخلق

مقبلة فامتطوا ظهور العزائم وهجروا لذة المنام وما ليل
المحب بنائم علموا طول الطريق وقلة المقام في منزل
والتزود فسارعوا في الجهاز وجد بهم السير إلى منازل
الأحباب فقطعوا المراحل وطووا المفاوز.

وهذا كله من ثمرات اليقين فإن القلب إذا استيقن ما
أمامه من كرامة الله وما أعد لأوليائه بحيث كأنه ينظر
إليه من وراء حجاب الدنيا ويعلم أنه إذا زال الحجاب
رأى ذلك عياناً زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلفون
ولأن له ما استوعره المترفون.

وهذه المرتبة هي أول مراتب اليقين وهي علمه وتيقنه
وهي انكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ولا يشك
فيه كأنكشاف المرئى للبصر.

ثم يليها المرتبة الثانية وهي مرتبة عين اليقين ونسبتها
إلى العين كنسبة الأول إلى القلب.

ثم تليها المرتبة الثالثة وهي حق اليقين وهي مباشرة
المعلوم وإدراكه الإدراك التام فالأولى كعلمك بأن في
هذا الوادي ماء والثانية كرؤيته والثالثة كالشرب منه.

ومن هذا ما يروى في حديث حارثة . وقول النبي
 - صلى الله عليه وسلم - « كيف أصبحت يا حارثة قال أصبحت مؤمناً
 حقاً قال إن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك قال
 عزفت نفسى عن الدنيا وشهواتها فأسهرت ليلي
 وأظمأت نهاري وكأنى أنظر إلى عرش ربي بارزاً وكأنى
 أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار
 يتعاورون فيها . فقال عبد نور الله قلبه ، (٦٢) فهذا هو
 هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الأمر ومن وصل إلى
 هذا استلان ما يستوعره المترفون وأنس مما يستوحش منه
 الجاهلون ومن لم يثبت قدم إيمانه على هذه الدرجة فهو
 إيمان ضعيف .

(٦٢) أخرجه البزار (٣٢/- / كشف) والعقيلي (٤/٤٥٥) من طريق
 يوسف بن عطية الصفار عن ثابت عن أنس - رضى الله عنه - مرفوعاً
 قال العقيلي : ليس لهذا الحديث إسناده يثبت .
 يوسف بن عطية : ضعفه الدارقطني وابن حبان . وقال النسائي : ليس
 بثقة ، وقال ابن عدى : أحاديثه غير محفوظة .
 (المجروحين (٣/١٤٣) الميزان (٤ : ٤٧٠) وقال البخارى في التاريخ
 الكبير (٤ : ٢ : ٣٨٧) يوسف بن عطية منكر الحديث .
 وقال الهيثمى : رواه البزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتاج به .

وعلاوة هذا انشراح الصدر لمنازل الإيمان وانفساحه
وطمأنينة القلب لأمر الله والإنابة إلى ذكر الله ومحبته
والفرح ببلقائه والتجافي عن دار الغرور كما في الأثر
المشهور « إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قيل وما
علامة ذلك قال التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار
الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله » وهذه هي الحال
التي كانت تحصل للصحابة عند النبي - ﷺ - إذا
ذكرهم الجنة والنار كما في الترمذى وغيره من حديث
الجريرى .

عن أبى عثمان النهدى عن حنظلة الأسدى . وكان من
كتاب النبي - ﷺ - أنه أمر بأبى بكر - رضى الله
عنه - وهو يبكى فقال مالك يا حنظلة فقال نافق حنظلة
يا أبأ بكر نكون عند رسول الله - ﷺ - يذكرنا بالجنة
والنار كأننا رأى عين فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة
نسينا كثيراً قال فوالله إنا لكذلك انطلق بنا إلى رسول الله
- ﷺ - فانطلقنا فلما رآه رسول الله - ﷺ - قال
مالك يا حنظلة قال نافق حنظلة يا رسول الله نكون
عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا رأى عين فإذا رجعنا
عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيراً . قال فقال رسول الله

- **عليه السلام** - « لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة وساعة وساعة » (٦٣). قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وفي الترمذى أيضاً نحوه من حديث أبى هريرة .

والمقصود أن الذى يهجم بالقلب على حقيقة الإيمان ويلين له ما يستوعره غيره ويؤنسه بما يستوحش منه سواه العلم التام والحب الخالص والحب تبع للعلم يقوى بقوته ويضعف بضعفه والحب لا يستوعر طريقاً يوصله إلى محبوبه ولا يستوحش فيها .

[صحبوا الدنيا بأبدانهم]

وقوله صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى وفي رواية بالمحل الأعلى الروح فى هذا الجسد بدار غربة ولها وطن غيره فلا تستقر إلا فى وطنها وهى جوهر علوى مخلوق من مادة علوية وقلما اضطرت إلى مساكنة

(٦٣) أخرجه مسلم (٢٧٥٠) والترمذى (٢٥١٤) من حديث حنظلة الأسيدي - رضى الله عنه - مرفوعاً .

هذا البدن الكثيف فهي دائماً تطلب وطنها في المحل الأعلى وتحن إليه حنين الطير إلى أوكارها وكل روح فيها ذلك ولكن لفرط اشتغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة أدخلت إلى الأرض ونسيت معلمها ووطنها الذي لا راحة لها في غيره فإنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه والدنيا سجنه حقاً فلماذا تجد المؤمن بدنه في الدنيا وروحه في المحل الأعلى.

وفي الحديث المرفوع «إذا نام العبد وهو ساجد باهي الله به الملائكة فيقول انظروا إلى عبدى بدنه في الأرض وروحه عندي» (٦٤) رواه تمام وغيره.

وهذا معنى قول بعض السلف: القلوب جواراة فقلب حول الحشر وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش فأعظم عذاب الروح انغماسها وتدسيسها في أعماق البدن واشتغالها بملاذه وانقطاعها عن ملاحظة ما خلقت له وهيئت له وعن وطنها ومحلها ومحل أنسها ومنزل كرامتها ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب فإذا صحت من سكرها وأفافت من

(٦٤) عزاه الألباني في الضعيفة (٥٣) إلى تمام في الفوائد وابن عساكر وضعفه انظر الضعيفة (٣٧٠/٣٦٩/٢).

غمرتها أقبلت عليها جيوش الحشرات من كل جانب
فحينئذ تنقطع حشرات على ما فاتها من كرامة الله وقربه
والأنس به والوصول إلى وطنها الذي لا راحة لها إلا فيه
كما قيل

صحبتك إذا عيني عليها غشاوة

فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

ولو تنقلت الروح في المواطن كلها والمنازل لم تستقر
ولم تطمئن إلا في وطنها ومحلها الذي خلقت له كما قيل
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وحنيه أبدأ لأول منزل

وإذا كانت الروح تحن أبدأ إلى وطنها من الأرض مع قيام
غيره مقامه في السكنى وكثيراً ما يكون غير وطنها
أحسن وأطيب منه وهي دائماً تحن إليه مع أنه لا ضرر
عليها ولا عذاب في مفارقتها إلى مثله فكيف بجنينها إلى
الوطن الذي في فراغها له هذابها وآلامها وحسرتها العى
لا تنقضى فالعبد المؤمن في هذه الدار سبي من الجنة إلى
دار التعب والعناء ثم ضرب عليه الرق فيها فكيف يلام

على حينه إلى داره التي سبى منها وفرق بينه وبين من
يحب وجمع بينه وبين عدوه فروحه دائماً معلقة بذلك
الوطن وبدنه في الدنيا ولى من آيات في ذلك (٦٥):

وحى على جنات عدن فإنها

منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو فهل ترى

نعود إلى أوطاننا ونسلم

وكلما أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه

صفحا وإيلافه وطناً غيره أبت ذلك روحه وقلبه كما قيل

يراد من القلب نسيانكم

وتأى الطباع على الناقل

ولهذا كان المؤمن غريباً في هذه الدار أين حل منها فهو في

دار غربة.

كما قال النبي - ﷺ - : «كن في الدنيا كأنك

غريب أو عابر سبيل» (٦٦) ولكنها غربة تنقضى ويصير

إلى وطنه ومنزله وإنما الغربة التي لا يرجى انقطاعها فهي

(٦٥) انظر كتاب (حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح).

(٦٦) أخرجه البخارى (٢٣٣/١١ - فتح) من حديث عبد الله بن

عمر - رضى الله عنهما - مرفوعاً.

غربة في دار الهوان ومفارقة وطنه الذي كان قد هيمء وأعد له وأمر بالتجهيز إليه والقدوم عليه فأنى إلا اغترابه عنده ومفارقتة له فتلك غربة لا يرجى إياها ولا يجبر مصابها ولا تبادر إلى إنكار كون البدن في الدنيا والروح في الملاء الأعلى فللروح شأن وللبدن شأن والنبي - صلى الله عليه - كان بين أظهر أصحابه وهو ﴿عند ربه يطعمه ويسقيه﴾ (٦٧) فبدنه بينهم وروحه وقلبه عند ربه .

وقال أبو الدرداء إذا نام العبد عرج بروحه إلى تحت العرش فإن كان طاهراً أذن له بالسجود وإن لم يكن طاهراً لم يؤذن له بالسجود فهذه والله أعلم هي العلم التي أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم وهذا الصعود إنما كان لتجرد الروح عند البدن بالنوم فإذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقى والصعود بحسب ذلك التجرد وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه وروحه وموضع آخر عند محبوبه وهذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف .

(٦٧) أخرجه البخارى (٤/٢٥٠ - فتح). ومسلم (٢/٧٧٤ /

عبد الباقي).

[هم خلفاء الله في أرضه]

وقوله أولئك خلفاء الله في أرضه ودعاته إلى دينه
هذا حجة أحد القولين في أنه يجوز أن يقال فلان خليفة
الله في أرضه واحتج أصحابه أيضاً بقوله تعالى للملائكة
﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (٦٨).

واحتجوا بقوله تعالى ﴿هو الذي جعلكم خلائف
في الأرض﴾ (٦٩) وهذا خطاب لنوع الإنسان.

وبقوله تعالى: ﴿أمن يجب المضطر إذا دعاه
ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ (٧٠) ويقول
موسى لقومه ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم
ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ (٧١).

وبقول النبي - ﷺ - : «إن الله ممكن لكم في أرض
ومستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا

(٦٨) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٦٩) سورة فاطر: الآية ٣٩.

(٧٠) سورة النمل: الآية ٦٢.

(٧١) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

واتقوا النساء» (٧٢). واحتجوا بقول الراعى يخاطب أبا بكر - رضى الله عنه -

خليفة الرحمن إنا معشر
حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً
عرب نرى لله فى أموالنا
حق الزكاة منزلاً تنزيلاً

ومنعت طائفة هذا الإطلاق وقالت لا يقال لأحد أنه خليفة الله فإن الخليفة إنما يكون ممن يغيب ويخلفه غيره والله تعالى شاهد غير غائب قريب غير بعيد راد وسامع فمحال أن يخلفه غيره بل هو سبحانه الذى يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته .

كما قال النبى - ﷺ - فى حديث الدجال « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مؤمن » (٧٣) والحديث فى الصحيح .

(٧٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً - رضى الله عنه .

(٧٣) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً - رضى الله عنه .

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله - ﷺ - كان يقول إذا سافر «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والحضر» (٧٤).

وفي الصحيح أن النبي - ﷺ - قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في أهله» (٧٥) فالله تعالى هو خليفة العبد لأن العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه في أهله. قالوا ولهذا أنكر الصديق - رضي الله عنه - على من قال له يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله وحسبي ذلك.

قالوا وأما قوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (٧٦) فلا خلاف أن المراد به آدم وذريته وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف على أنه جعله خليفة عمن كان قبله في الأرض. قيل عن الجن الذين

(٧٤) أخرجه مسلم (١٣٤٢) من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - مرفوعاً بدون لفظ (والحضر).

(٧٥) أخرجه مسلم (٩٢٠) من حديث أم سلمة - رضي الله عنها - مرفوعاً.

(٧٦) سورة البقرة: الآية ٣٠.

كانوا سكانها . وقيل عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن وقصتهم مذكورة في التفاسير . وأما قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ (٧٧) فليس المراد به خلائف عن الله وإنما المراد به أنه جعلكم بـ: نائب بعضكم بعضاً فكلما هلك قرن خلفه قرن إلى آخر الدهر .

ثم قيل أن هذا خطاب لأمة محمد - ﷺ - خاصة أى جعلكم خلائف من الأمم الماضية فهلكوا وورثتم أنتم الأرض من بعدهم . ولا ريب أن هذا الخطاب للأمة والمراد نوع الإنسان الذى جعل الله أباهم خليفة عمن قبله وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضاً إلى قيام الساعة ولهذا جعل هذا آية من آياته كقوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ (٧٨) وأما قول موسى لقومه ﴿ ويستخلفكم فى الأرض ﴾ (٧٩) فليس ذلك استخلاقاً عنه وإنما هو

(٧٧) سورة فاطر : الآية ٣٩ .

(٧٨) سورة النمل : الآية ٦٢ .

(٧٩) سورة الأعراف : الآية ١٢٩ .

استخلاف عن فرعون وقومه أهلكتهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم وكذا قول النبي - ﷺ - : « إن الله مستخلفكم في الأرض من الأمم التي تهلك وتكونون أنتم خلفاء من بعدهم » .

قالوا وأما قول الراعى فقول شاعر قال قصيدة في غيبة الصديق لا يدري أبلغت أبا بكر أم لا ولو بلغته فلا يعلم أنه أقره على هذه اللفظة أم لا . قلت إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه . فالصواب قول الطائفة المانعة منها وأن أريد بالإضافة أن الله استخلفه من غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الإضافة وحقيقتها خليفة الله الذى جعله خلفاً عن غيره وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين أولئك خلفاء الله فى أرضه . فإن قيل هذا لا مدح فيه لأن هذا الاستخلاف عام فى الأمة وخلافة الله التى ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق .

فالجواب أن الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الإضافة . فالإضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف إليه عباده كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

سلطان ﴿٨٠﴾ ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ ﴿٨١﴾ ونظائرهما .

ومعلوم أن كل الخلق عباد له فخلفاء الأرض كالعباد في قوله ﴿والله بصير بالعباد﴾ ﴿٨٢﴾ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴿٨٣﴾ وخلفاء الله كعباد الله في قوله ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ ﴿٨٣﴾ ونظائره وحقيقة اللفظة أن الخليفة هو الذى يخلف الذاهب أى يجيء بعده يقال خلف فلان فلاناً وأصلها خليف بغير هاء لأنها فعيل بمعنى فاعل كالعليم والتقدير فدخلت التاء للمبالغة في الوصف كراوية وعلامة . وهذا جمع جمع فعيل فقيل خلفاء كشريف وشرفاء وكريم وكرماء ومن راعى لفظه بعد دخول التاء عليه جمعه على فعائل فقال خلائف كعقيلة وعقائل وظريفة وظرائف وكلاهما ورد به القرآن هذا قول جماعة من النحاة .

(٨٠) سورة الحجر : الآية ٤٢ .

(٨١) سورة الفرقان : الآية ٦٣ .

(٨٢) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٨٣) سورة غافر : الآية ٣١ .

والصواب أن التاء إنما دخلت فيها للعدل عن الوصف إلى الاسم فإن الكلمة صفة في الأصل ثم أجريت مجرى الأسماء فألحقت التاء لذلك كما قالوا نطيحة بالتاء فإذا أجروها صفة قالوا شاة نطيح كما يقولون كف خضيب وإلا فلا معنى للمبالغة في خليفة حتى تلحقها تاء المبالغة والله أعلم.

[هم خواص خلق الله لأنهم دعائه]

وقوله ودعائه إلى دينه الدعاة جمع داع كقاض وقضاء ورام ورماه وإضافتهم إلى الله للاختصاص أى الدعاة المخصوصون به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدراً * يدل على ذلك (الوجه الثلاثون بعد المائة) وهو قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين﴾ (٨٤).

(٨٤) سورة فصلت: الآية ٣٣.

قال الحسن: هو المؤمن أجاب الله في دعوته دعا
الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في
إجابته فهذا حبيب الله هذا ولي الله فمقام الدعوة إلى الله
أفضل مقامات العبد.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدَ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا
يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (٨٥).

[مراتب الدعوة إلى الله]

وقال تعالى: ﴿ادْع إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٨٦)
جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق
فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه
يدعى بطريق الحكمة.

والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة
الحسنة وهى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرغبة.

(٨٥) سورة الجن: الآية ١٩.

(٨٦) سورة النحل: الآية ١٢٥.

والمعاند الجاحد يجادل بالتى هى أحسن هذا هو الصحيح فى معنى هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهى دعوة الخواص .

والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهى دعوة العوام .

والمجادلة بالتى هى أحسن القياس الجدلى وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلى مسلم المقدمات وهذا باطل وهو مبنى على أصول الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها .

وقال تعالى : ﴿ قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾ (٨٧) .

قال الفراء وجماعة ومن اتبعنى معطوف على الضمير فى أدعو يعنى ومن اتبعنى يدعو إلى الله كما أدعو وهذا القول كلبى قالى حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة .

(٨٧) سورة يوسف : الآية ١٠٨ .

قال ابن الأنبارى ويجوز أن يتم الكلام عند قوله إلى
الله ثم يتدىء بقوله على بصيرة أنا ومن اتبعنى فيكون
الكلام على قوله جملتين متلازمان فلا يكون الرجل من
اتباعه حقاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه وقول الفراء
أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة وإذا كانت الدعوة
إلى الله أشرف مقالات العبد وأجلها وأفضلها فهى لا
تحصل إلا بالعلم الذى يدعو به وإليه بل لا بد فى كمال
الدعوة من البلوغ فى العلم إلى حد يصل إليه السعى
ويكفى هذا فى شرف العلم أن صاحبه يجوز به هذا المقام
والله يؤتى فضله من يشاء .

الفهرس

الصفحة

الموضوع

- ٣ مقدمة
- ٤ نسبة الكتاب للإمام ابن القيم
- ٥ بين يدي الكتاب
- ٩ عملي في الكتاب
- ١١ وصية غالية لعلی بن أبي طالب
- ١٣ شرح الخطيب لحديث علی
- ١٤ العالم الرباني
- ١٥ شرح المؤلف لحديث علی
- ١٨ مراتب الإدراك
- الناس ثلاثة من حيث تقبلهم للعلم :
- ١٩ أولاً : العالم الرباني
- ٢٠ ثانياً : المتعلم علی سبيل النجاة
- ٢٢ ثالثاً : الهمج الرعاع
- أوصاف القسم الثالث :
- ٢٣ (أ) اتباع كل ناعق
- ٢٣ (ب) يميلون مع كل ريح
- ٢٤ مقارنة بين المؤمن والكافر من حيث الابتلاء
- ٢٥ للعلم نور يهتدى به
- ٢٧ العلم خير من المال

٢٨	العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة
٢٩	وجوه تفضيل العلم على المال
٣٦	جامع المال إن أمسكه .. وإن أنفقه
٣٧	حسرة جمع المال
٣٩	جامع المال ينفر منه
٤٠	المال لا يراد لذاته
٤١	منغصات لذات العلم
٤٤	لذة الجماع
٤٩	المال يجمع على قدر الكفاية
٥٠	محبة العلم وأهله تورث السعادة
٥١	العلم يكسب الطاعة
٥٤	التملق يزول بزوال أسبابه
٥٧	هل يجوز للإنسان أن يخبر الناس بعلمه ؟
٥٨	أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله
٦٠	الراسخ في العلم
٦١	وصية شيخ الإسلام للنجاة من الشكوك
٧٠	يموت العلم بموت حامله
٧٥	المكلفون بمظهار جميع الله وبيئاته
١٠٥	مراتب الدعوة إلى الله
١٠٩	فهرس الموضوعات

صدر حديثا

الأدب

الله

جمع واعداد

أبو حذيفة

أبو حذيفة